من تراب الطريق! (٦٠٦)

العند يورث الكفر*!!!

(١)

جرت من سنين، مجرى الأمثال، آبدة عامية تقول :

« العند يورث الكفر».. واستقر المثل فى أخلاد الناس دون أن يفتشوا عن أسبابه .. وأسبابه قديمة فى تاريخ البشرية، ففى هذا التاريخ الموغل فى القدم، كان العناد هو الركن الركين فى تمسك الأقدمين بالكفر، وصدهم عن سبيل الله، ومقاومة كافة الأنبياء والرسل محتجين ـ عنادًا ـ بما وجدوا عليه آباءهم، غارقين محاصرين أنفسهم بهذا العناد الذى أطلقت عليه سلفًا :

« شرنقة الاعتياد »!!! فى كتابى : الأديان والزمن والناس .

كان « العناد » هو إذًا المدخل لإغلاق وإيصاد العقول بالضبة والمفتاح أمام دعوات الرسل والأنبياء .. وحينما يوصد الإنسان عقله، فإنه يتسلح بالعناد، والمعاندة، واشتهرت بذلك فرقة من السوفسطائية تسمى «العنادية».. ينكرون حقائق الأشياء، ويزعمون أنها وهم وخيال باطل .. ذلك أن من يوصد عقله لا يرى فى ذلك الإيصاد شيئا ولا يجد فيه غرابة، فقد أغلق العقل الذى كان يمكن أن يطلعه على ما يميز به بين الصواب والخطأ !

(*) المال ٢٠١٢/٥/٢٨

عن شرنقة الاعتياد، قلنا بكتاب الأديان والزمن والناس :

« يعرف دعاة الإصلاح، مثلما يعرف علماء النفس والاجتماع، والمتأملون فى أحوال الإنسان ـ . أن شرنقة العادة أو الاعتياد، هى الجدار العالى الذى تتكسر عنده محاولات الآدمى منذ كان للهداية أو الإصلاح أو الترقى أو التغيير أو التطوير، وأن هذه الآفة ـ آفة أو شرنقة الاعتياد ـ هى أعوص ما تواجهه دعوات أوحركات أو محاولات أو رغائب الهداية أو التنوير أو الإصلاح أو الترقى أو التغيير، للفرد أو للجماعات ـ أيًا كان شكلها أو نظامها أو أحوالها » !!!

« وسلطان العادة أو الاعتياد، غير ظاهرة : التكرار و الإعادة » التى تكاد تنطبع بها حياة الآدمى منذ كان .. فحياة الآدمى منذ تخليقه جنينًا فى الأرحام، يرد عليها التكرار والإعادة، فى حركات الآدمى وفى سكناته .. الواعية وغير الواعية، وهو خضوع لا يخلو من الفائدة لأن إليه الضبط النسبى لمعدل نمونا المناسب بدنيًا وعاطفيًا وعقليًا . ذلك أنه يستحيل أن تستمر حياة أى حىّ ـ إنسانًا كان أو حيوانًا أو نباتًا ـ دون الإذعان لناموس « التكرار والإعادة » .. وهو ناموس يبدو مطلقًا قاسيًا فى الحيوان وفى النبات، ولكنه مع مرور الزمن يصير نسبيًا فى البشر لأنه تنمو فيه مرونته وتخف تبعًا لذلك سيطرته وتتكاثر فيه الثغرات التى ينفذ منها نشاط العقل النامى المتطلع المتوثب الطامح ـ إذا تيقظ ـ إلى المزيد ومزيد المزيد من اتساع الرؤية والفهم وصحتهما .. على أن إيجابية ناتج « التكرار والإعادة » .. لا تنجو من جانب مأساوى حين يسيطر هذا الناموس على كل مصدقات وتقاليد وعادات وأساليب ومشارب وقيم ومثل وآمال وأمانى البشر، وحين يهيمن على طرق التفكير والتصور والفهم

والرؤيـة والإدراك والتمييـز بـين الـصواب وغـير الـصواب، سـواء فى اختيارات الناس أو معارفهم أو آدابهم أو فنونهم أو أخلاقهـم أو مـذاهبهم بشتى أنواعها وألوانها! .. وإلى هذا الجانب المأساوى ترجع معظم الأخطاء والفظـائع والحماقـات والمعـارك الفرديـة والجماعيـة، وبـسببها تقـع أغلـب الأزمات والفتن والكوارث والنكبات والحروب، ويتـشكل الجانـب المعـتم الحزين فى معظم ماضى وحاضر البشر، لأن التكرار والإعادة كـما يتـسببان فى تقوية حفظ الحافظ وفهم الفاهم، وأدب الأديب، وفصاحة الفصيح، وحـب المحب، ومحاسـن الحـسن، وعطـف العطـوف، وصـدق الـصادق، ووطنيـة الوطنى، وصلاح الصالح، وإيمان المؤمن، وفطانـة الفطـن، وعفـة العفيـف، وأمانة الأمين، وصبر الصابر، وشفقة الشفيق ـ فإنهما يتسببان أيضًا : « التكرار والإعادة، فى تقوية وتحكم الشعور بأضداد ما تقدم كله، فتقوى أو تتحكم أو تستحكم صـلابة المتـصلب، وجمـود المتجمـد، وقـسوة القاسـى، وصـعوبة الصعب، وقبح القبيح، ونكـران المنكر، وجـشع الجـشع، وخطـورة الخطـر، وخيانة الخائن، وحقـد الحاقـد، وإجـرام المجـرم، وتهـور المتهـور، واندفاع المندفع، ورعونة الأرعن، وأذى المؤذى، وضـراوة الضارى، وحمـق الأحمـق، وقفر المقفـر، وإجداب المجدب .. لأنه مع تكـرار هذا أو ذاك وإعادته يغـور ويقوى ويتمكن ويشتد فى اللا وعى وفى الوعى، وينزرع فى النسيج والطباع، وإلى ذلك ترجع الشرور والآثام التى تذوى وتنحدر بها أحوال الجماعات مع مرور الزمن !!! ».

العند يورث الكفر*!!!

(٢)

من كل ما ذكرناه سلفًا يتشكل العناد الذى يخلد به الآدمى لما اعتاده، ويرفض به كل ما يدعوه إلى إعمال الفكر والنظر أو الخروج عما اعتنقه وتصلب عليه مهما كان ظاهر الفساد والبطلان .. وقد ضرب القرآن المجيد مثلًا لهؤلاء الغارقين فى العناد ـ قوم إبراهيم، حين دعاهم إلى عبادة ربه، وتساءل متعجبًا عما يعبدون من دونه، فقالوا له قولًا عجبًا .. جاء عنه فى القرآن المجيد : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ* قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ* قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ » (الشعراء ٦٩-٧٣).

ألقى عليهم إبراهيم هذا السؤال القارع .. هل هذه الأصنام تسمع دعاءهم، أو تنفعهم أو تضرهم؟! ومع ذلك لم يفقهم هذا السؤال القارع المنبه، فأجابوا بما لا يرد على ذهن عاقل.. قالوا لإبراهيم : « بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » (الشعراء ٧٤).

وهذا الاستشهاد السقيم ورد على لسان كل الكافرين الذين أنكروا ما جاءهم به الرسل والأنبياء، وهو اللوذ والارتياح لما كان يعبده الآباء والأجداد، فقد ألفوا ذلك واعتادوه، دون أن تقتضيهم « العادة » جهدًا ولا

(*) المال ٢٠١٢/٥/٢٩

عناءً ولا تفكيرًا .. فما وجدوه درجوا عليه، وأنزلوه لديهم منزلة العقيدة، واطمأنوا إليه على ما فيه من تهافت وضلال واضح .. العناد واعتياد الكفر هو التميمة أو الشرنقة التى جمعت جميع الكافرين فى صدهم للأنبياء والرسل فى كل عصر .. وكأنهم كانوا جميعًا ينطقون بلسان واحد، وعلى نسق واحد، ووتيرة واحدة، وعلى إيقاع واحد يجمع خيوطه على اختلاف الأقوام والعصور والأزمان، إلف هؤلاء وأولاء واعتيادهم وجمودهم وتقديسهم الضرير وتمسكهم بما ألفوا ووجدوا عليه آباءهم وأجدادهم .. لا يجدون فى هذا الجمود إلاّ الحق ولا حق سواه، وغيره باطل لا صحة ولا سداد فيه !!! لذلك ألقى عليهم إبراهيم ملاحظته القارعة الثانية، فقال لهم فيما يرويه القرآن : « قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ*أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ*فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ » (الشعراء ٧٥-٧٧).. ثم يستأنف إبراهيم لبيان ما تطمئن إليه العقول والأفئدة، فيقول لهم عطفًا على تذكيرهم برب العالمين : « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ*وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ*وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ*وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ »(الشعراء ٧٨-٨١) .. هذا التذكير يحمل إلى جوار البيان ـ الحجة التى توقظ العقول من سباتها، وتلفت بالمقارنة إلى الفارق بين الأصنام التى لا تسمع ولا تضر ولا تنفع، وبين آيات القدرة الإلهية الدالة على مقام الألوهية وعظمة الوحدانية .. فهو سبحانه وتعالى الذى يهدى ويطعم عباده ويسقيهم، ويشفى عليلهم ومرضاهم، وهو جل وعلا الذى يميت ويحيى . إلى رب العالمين يتجه إبراهيم بعد هذا البيان سائلًا إياه المغفرة على خطاياه، والدعاء بأن يهبه سبحانه الحكمة، وأن يلحقه تبارك وتعالى بالصالحين .. « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ*رَبِّ هَبْ

لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ*وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ*وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ » (الشعراء ٨١-٨٦).. ثم لا يفوته أن يطلب لأبيه المغفرة لأنه ضل لا يعى ولا يعقل ولا يفهم!!

العند يورث الكفر*!!!

(٣)

وكما لم يتعظ قوم نوح، وعاندوا وأنكروا هداية العقل، جاء إنكار الغابرين من بعدهم، ترى غياب العقل، حاضرًا فى كفرهم وفى إنكارهم وفى عنادهم وفى إصرارهم على ما هم فيه من ضلال .. تكرر هذا من عاد قوم النبى هود عليه السلام، ومن ثمود قوم النبى صالح، ومن قوم لوط .. نكاد لا نرى إلا اختلاف الصور والمشاهد، ولكنها مردودة جميعها إلى خيط واحد يرينا كيف يفعل الإنسان حين يغيب عقله..

تروى سورة الشعراء جانبًا من هذه المشاهد المتكررة ، فتورد عما كان بين هود عليه السلام وقومه عاد : « كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » (الشعراء ١٢٣ـ ١٣٥) .

(*) المال ٢٠١٢/٥/٣٠

فبماذا ردوا على هذه الدعوة المضيئة العاقلة الهادية ؟! :

« قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » (الشعراء ١٣٦ ـ ١٤٠) .

وكما كانت لجاجة عاد ، وما حاق بها ، جاءت لجاجة ثمود مع النبى صالح عليه السلام : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ » (الشعراء ١٤١ ـ ١٥٢) .. واستعلت ثمود واستكبرت ، وعاندت وبالغت فى عنادها ، وأوصدت عقولها ، واستبدلتها بالمكابرة واللجاجة والسخرية : « قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » (الشعراء ١٥٣ـ ١٥٩) .

تنتقل سورة الشعراء ، بعد بيان ما كان عن عاد وثمود ، إلى ما كان من قوم لوط الذين أبوا إلاَّ مخالفة النواميس ، وأخذتهم العزة بالإثم الغارقين فيه ، ولم يبالوا بنصح لوط عليه السلام لهم .. فتقول الآيات : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا

اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » (الشعراء ١٦٠ ـ ١٦٦) .

أوصد هؤلاء المنكرون عقولهم ، ولم يلتفتوا إلى قبح ما يفعلون ، ومخالفته للطبائع التى لا يخالفها حتى الحيوانات والضوارى ، فمضوا فى حمقاتهم وعنادهم وتمسكهم الضرير بما يرتكبونه موبقات : « قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »

(الشعراء ١٦٧ ـ ١٧٥) .

بعد ذلك تعرض سورة الشعراء إلى ما كان من أصحاب الأيكة ، وهى الأرض ذات الشجر الملتف ، قوم شعيب عليه السلام . إذ قال لهم عليه السلام : ألا تخشون عقاب الله على شرككم ومعاصيكم وغشكم وتطفيفكم فى الكيل والموازين ، وبخسكم الناس أشياءهم وعيثكم فى الأرض فسادًا . إلاّ أنه لم يفلح معهم التبصير ، ولا نفعت معهم هداية ، ولا أجدى معهم التحذير والنذير ، فردوا بلا عقل مجادلين : « قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » (الشعراء ١٨٥ ـ ١٩١) .

العند يورث الكفر*!!!

(٤)

قدمت سورة الشعراء (١٨٥ ـ ١٩١) لما كان بين النبى شعيب عليه السلام وبين قومه : أصحاب الأيكة .. وفى ذلك فصلت سورة هود الحديث فيما كان من هؤلاء من عناد وإنكار وصدود عن الحق الذى جاءهم به ومن المحال أن ترفضه العقول . ففى الآيتين ٨٤، ٨٥ من سورة هود : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ » (هود ٨٤، ٨٥) .. ورسالة هاتين الآيتين لا تقف عند ظاهر الكيل والميزان، وإنما تتعدى الظاهر إلى الرسالة الأعمق .. وهى العدل والكفاية فى الحقوق بعامة ـ أن يعطى كلَّ كلِّ ذى حق حقه، فلا يبخسه، ولا يكتال عليه، ولا يتغول على حقوقه، ولا يظلمه أو يجور عليه . فإذا كان رفض الإنصاف يمكن أن يُعزى إلى الجبلة والأثرة الآدمية التى تضيق بإعطاء الحق من نفسها، فإن عناد هؤلاء ورفضهم للتوحيد وعبادة الله الذى لا إله غيره، لم

(*) المال ٢٠١٢/٥/٣١

يكن إلاَّ عنادًا صرفًا صادرًا عن التصلب وإغلاق العقول، ولكنهم أخذوا يختلقون التعلات ـ مصدرين المال وقوانينه !! ـ لرفض دعوته جملة وفى مقدمتها دعوته إلى التوحيد وعبادة رب العالمين .. فتروى الآيات : « قَالُواْ يَـ شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » (هود ٨٧) .. فطفق شعيب عليه السلام يبصرهم ويعظهم ويذكرهم بما هم فيه من خير يفرض عليهم القسط واجتناب معصية الله الذى وهبهم وأعطاهم ما هم فيه، وينذرهم ويحذرهم مما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط من قبلهم ويدعوهم إلى الاستغفار والتوبة إلى ربهم الرحيم الودود . فماذا فعلوا، وكيف استقبلوا هذه الدعوة الهادية ؟! « قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » (هود ٩١)!!.. ومضوا فأصموا آذانهم وأغلقوا عقولهم واستمسكوا بما هم فيه من ضلال ـ عنادا وكفرًا، حتى نزل بهم عقاب الحكم العدل، فتقول الآيات :

« وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ » (هود ٩٤، ٩٥) .

وتروى سورة الأعراف مجمل ما كان بين شعيب عليه السلام وقومه، فتقول : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلاَ

تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ » (الأعراف ٨٥ ـ ٩٣) !!

لم يُجْد ولم ينفع مع هؤلاء خطاب العقل ولا نداء الضمير، ولا بلاغة شعيب الذى قال بعض السلف أنه كان خطيب الأنبياء، وأن المصطفى ﷺ كان يقول عنه إذا ذكر أمامه : « ذاك خطيب الأنبياء » .. لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته فى دعوته قومه إلى الإيمان برب العالمين .. بيد أن كل ذلك لم يُجْد مع قومه، ولم يُفْلح فى زحزحتهم عن ضلالهم الذى تشبثوا به عنادًا ومكابرة .. وهما آفة الآفات التى تصيب الإنسان فتفقده القدرة على استلهام بل ورؤية الصواب !!! حتى قالوا لشعيب عليه السلام : « قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا

نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » (هود ٩١) .

هذا العناد هو الذى رأينا عليه قوم إبراهيم الخليل عليه السلام، ومن سلف من أقوام غلبهم الكفر والعناد فرفضوا ما أتاهم من الرسالات والنبوات . وقد جاء بالقرآن فى شأن من أهلكوا من الأمم بعامة جزاء كفرهم وعنادهم وصدهم عن سبيل الله : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (القصص ٤٣) .. وجاء فى سورة الفرقان : « وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا » (الفرقان ٣٨، ٣٩) .. وقيل إن أصحاب الرس كانوا قبل عاد ـ قوم هود ـ بكثير ، وقال البعض إنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة البروج، وقيل إنهم أهل قرية من قرى ثمود : قوم صالح، فكذبوا النبى الذى أرسل إليهم وقتلوه، فكان ما نزل بهم من عقاب وهلكة ـ جزاء هذا الصد والعناد الذى أوردهم موارد التهلكة !!

من تراب الطريق! (٦١٠)

العند يورث الكفر*!!!

(٥)

ومن أبلغ القصص فى الإمعان فى العناد الذى يورث الكفر، عناد أصحاب القرية التى ورد نبأها فى سورة يس (الآيات ١٣-٢٩) .. والتى أرسل إليها الله تعالى اثنين من المرسلين، فكذبوهما عنادًا وكفرًا فعزز الله تعالى بثالث، ولكن أصحاب القرية أبوا إلاَّ العناد والنكير، وتكذيب ما جاءهم به هؤلاء الرسل من حجج وبينات، واحتجوا بأنهم تشاءموا منهم، واشتطوا فهددوهم وتوعدوهم بالرجم بالحجارة وبالعذاب الأليم إن لم يكفوا عن دعوتهم . وإذ هم فى سجالهم الضرير وصم آذانهم عن دعوة المرسلين وتهديدهم، جاء من أقصى المدينة رجل يسعى حين علم بأنهم هموا بتعذيب الرسل وقتلهم، فدعاهم إلى اتباعهم فهم مرسلون من ربهم لا يسألونهم أجرًا ولا نفعًا، وطفق يبين لهم حججه وبراهينه، وخطأ ما هم فيه من ضلال، فأبوا إلاَّ الإمعان فى العناد والكفر، ووثبوا إليه وقتلوه، فأدخله الله الجنة، أما هؤلاء المعاندون، فقد نزل بهم أمر الله وعقابه، فما هى إلاَّ أن هلكوا بصيحة واحدة جاءتهم مهلكة من السماء، فإذا هم ميتون خامدون كما تخمد النار، يتصايحون بالحسرات ويندمون حيث لم يعد ينفع الندم.. « إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً

(*) المال ٢٠١٢/٦/٥

بالحسرات ويندمون حيث لم يعد ينفع الندم.. « إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ » (يس ٢٩-٣١) .

على عكس هذا الإمعان فى العناد، كان قوم يونس عليه السلام، فاهتدوا إلى سواء السبيل حين أقلعوا عن العناد وتمعنوا فيما جاءهم به وتابوا عما كانوا فيه من ضلالة .. فتقول الآيات من سورة يونس : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » (يونس ٩٦-٩٨) .. فتنبئ الآيات بأن الناس جبلت على الإنكار والعناد، وأن أكثرهم لا يؤمنون بحجج الله تعالى ، ولا يقرون بوحدانيته ، ولا يعملون بشرعه ، برغم ما يأتيهم من الموعظة والعبرة ، ولا يقلعون عن ذلك إلاَّ إذا رأوا العذاب وعاينوه ، وأنه لم يفئ إلى الإيمان فى أوانه ، وينتفع به، إلاَّ أهل قرية النبى يونس عليه السلام ، فإنهم لما أيقنوا أن العذاب نازل بهم بعد ما فارقهم يونس مغاضبًا ، تابوا إلى الله توبة نصوحًا ، فكشف الله تعالى عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا فمتعهم فيها سبحانه إلى حين . وتتابع الآيات فى خطابها إلى محمد عليه الصلاة والسلام فتقول له إن الله لو شاء لآمن من فى الأرض جميعًا ، ولكنه تبارك وتعالى يتركهم لحكمة يراها ولا يدركها سواه ، يقول عز من قائل : « وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ » (يونس ٩٩، ١٠٠) .

أما يونس عليه السلام ، الذى ذهب مغاضبًا دون أن يعرف أن قومه قد أقلعوا عما هم فيه وتابوا إلى ربهم ، فقد شملته رحمة ربه ، ونجاه سبحانه من الغم .. فجاء بسورة الأنبياء : « وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ » (الأنبياء ٨٧ ، ٨٨) .. وتروى سورة الصافات مجمل هذه القصة ، فجاء بها : « وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » (الصافات ١٣٩-١٤٨) .

وفى تسرية ربانية ، عن محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، تخاطبه الآيات الكريمة أن يصبر لحكم ربه تبارك وتعالى ، وألا يسارع إلى الغضب كيونس صاحب الحوت الذى غلبه غضبه لعدم صبره على قومه ، لولا أن تداركته نعمة ربه .. تقول الآيات : « أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » (القلم ٤٧-٥٠) .

العند يورث الكفر*!!!
(٦)

كان ادعاء الألوهية، أشد وأعتى صور العناد الذى هو الكفر بعينه، وتروى سورة القصص ما كان من أمر فرعون الذى علا وتجبر فى الأرض، وفرق أبناء مصر شيعًا تستبد كل شيعة بغيرها، وتستضعفها، وتشاء عناية الله أن يتربى موسى عليه السلام ويشب بذات مقر فرعون، بعد أن ألقته أمه باليم صدوعًا لأمر ربها، فرده الله إليها لتكون مرضعًا له، فلما بلغ موسى أشده واستوى آتاه الله تعالى حكمًا وعلمًا، وقبل سبحانه وتعالى توبته وغفر له حينما وكز المصرى فقتله فقضى عليه ثم استعبر مما دفعه الشيطان إليه، ثم يعد ربه تبارك وتعالى، ألا يكون ظهيرًا للمجرمين ، فنصره سبحانه على سحرة فرعون، ونجاه من الشر الذى دبروه له، فلما انقلب السحرة صاغرين ساجدين مؤمنين برب العالمين بعدما رأوا من آيات موسى، انفجر عناد فرعون الذى أورثه الكفر وادعاء الألوهية ، فطفق يتوعد سحرته مستكثرًا عليهم أن يؤمنوا بالله قبل أن يأذن لهم ..

(*) المال ٢٠١٢/٦/٦

« قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ » (الأعراف ١٢٣، ١٢٤) ، ولكنهم لم يجزعوا ولم يتراجعوا .. « قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ* وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » (الأعراف ١٢٥، ١٢٦) ..

بيد أن السادة والكبراء من قوم فرعون أمعنوا فى التحدى فقالوا إنه مهما أتاهم موسى بالآيات فلن يؤمنوا :« وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » (الأعراف ١٣٢)، وطفقوا ـ عنادًا ـ يحرضون فرعون ألا يدع موسى يفسد فى الأرض .

على أن موسى عليه السلام لم يلاق عناد هؤلاء وكفى، وإنما صادف من عناد قومه ما لاقاه النبيون من قبله، فجعلوا يعارضونه بأنهم لاقوا الأذى من قبل أن يأتيهم ولم يعد بوسعهم الصبر، وظلوا بعد ذلك يبتدعون من العناد والإعنات ألوانًا، فتروى سورة الأعراف : « وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » (الأعراف ١٣٨، ١٣٩)، ومضى موسى عليه السلام فقال لقومه بنى إسرائيل معاتبًا ومبصرًا هل يبغى لهم إلاهًا غير الله الذى غمرهم بفضله ! على أن عنادهم ولجاجتهم أورثتهم الكفر كما أورثت فرعون وآله، فسقطوا عنادًا فى هاوية أشد وأنكى بأن عبدوا العجل، وروى القرآن الحكيم هذه الجانحة فى أكثر من موضع، فجاء بسورة الأعراف : « وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن

بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (الأعراف ١٤٨، ٤٩)،

وجاء بسورة طه : « فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى » (طه ٨٦ ـ ٩١) ..

وجاء بسورة البقرة : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (البقرة ٥٤)، وقرَّعهم القرآن الحكيم على ذلك فقال : « وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » (البقرة ٩٢، ٩٣) .. وجاء بسورة الأعراف : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ » (الأعراف ١٥٢) .

م ن
ت راب (٦١٢)
الطريق؟

العند يورث الكفر*؟!!
(٧)

روت سورة المائدة من الآية ٢٠ إلى الآية ٢٦ ــ مشهدًا من عناد بنى إسرائيل ـ الذى أورثهم الكفر ـ مع موسى عليه السلام، فقد جعل عليه السلام يذكرهم بنعمة الله عليهم، إذ جعل فيهم أنبياء، وجعل أمرهم بيدهم بعد أن كانوا فى ملك فرعون وقومه، وآتاهم نعمًا لم يُؤْتها أحدًا من العالمين، وطلب إليهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب عليهم أن يقاتلوا من فيها وألاّ يرتدوا على أدبارهم حتى لا ينقلبوا خاسرين، فبدأ بنو إسرائيل لجاجتهم متعللين بأن من فيها قومًا أشداء جبارين، ولا طاقة لهم بحربهم، وأنهم لن يدخلوها أبدًا إلاّ إذا خرجوا منها.. تقول الآيات : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ » (المائدة ٢٠ ـ ٢٢) .. وتروى الآية ٢٣ من سورة المائدة أنه قد تدخل لإيقاف

(*) المال ٢٠١٢/٦/١٢

ويروى القرآن الحكيم صورًا أخرى من هذا العناد الذى جرى عليه بنو إسرائيل، فجاء بسورة البقرة : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ » (البقرة ٥٥)،

وجاء بذات السورة :« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ » (البقرة ٦١) .

هذه اللجاجة ـ رجلان من الذين يخشون الله تعالى، أنعم الله عليهما بطاعته وطاعة نبيه، فَحَثَّاهم على الدخول إلى الأرض المقدسة، والأخذ بالأسباب إن كانوا مؤمنين، وأنهم إن فعلوا وتوكلوا فستكون الغلبة لهم، فأبى بنو إسرائيل إلاّ اللجاجة والعناد والتمرد على نبيهم قائلين له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون !!

تقول الآيات : « قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » (المائدة ٢٢ ـ ٢٦) .

ويورد القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن، من رواية ابن عباس وغيره، وكذا الطبرى فى تاريخه، أن أحد الرجلين الصالحين المشار إليهما بالآية (٢٣) من سورة المائدة أنهما حَثَّا بنى إسرائيل على طاعة موسى، هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وقيل إن يوشع ـ عليه السلام ـ هو الذى بعثه الله لبنى إسرائيل بعد موسى وهارون ـ عليهما السلام، وأنه الذى دخل ببنى إسرائيل أريحا ـ لحرب من فيها .. فأبى بنو إسرائيل إلاَّ عنادهم، وطلبوا أن يكون عليهم ملك يقاتلون معه، فلما قيل لهم حذرًا وتخوفًا مما اعتادوه : « هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ » (البقرة ٢٤٦)، زعموا أنهم لن ينكصوا ولن يفروا،

ولكنهم عادوا لما اعتادوه من عناد ونكوص، جاء عنه بذات الآية (٢٤٦) من سورة البقرة : « فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » (البقرة ٢٤٦)، فقال لهم نبيهم إن الله تعالى قد أجابهم إلى طلبهم وأرسل لهم طالوت ملكًا ليقودهم فى القتال كما طلبوا، فما بالهم قد نكصوا وخالفوا، حينذاك تعللوا ـ عنادًا ـ بأنه لا يستحق الملك عليهم لأنه ليس من سبط الملوك، ولا من بيت النبوة، ولم يُعْط كثرة فى الأموال يستعين بها فى ملكه، ومن ثم فهم أحق بالملك منه : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (البقرة ٢٤٧) .

تروى الآيات ما أداره عناد بنى إسرائيل فى حوارهم الضرير لنبيهم، ورده عليهم وحجته لهم أن الله تعالى مالك الملك يعطى ملكه من يشاء من عباده، أن للملك طالوت علامة أنه سيأتيهم بالتابوت وما كان فيه حين انتزاعه منهم، وأن ذلك لهو البرهان القاطع إنْ كانوا مؤمنين مصدقين بربهم .

وأنت ترى أن العناد هو الذى أسلم المعاندين إلى وهن ذريعتهم فى اللجاجة والاعتراض، وعمائهم عن رؤية أن الله تعالى هو الذى بعث طالوت ملكًا عليهم، وأنه سبحانه هو الذى يعطى الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وأن قيادة الحروب شكيمة وقدرة وخبرة وعزم وهمّة، ومعايير ذلك تختلف عن المعايير التى أراد المعاندون فرضها، ولولا هذا العناد لرأوا ما عجزوا عن رؤيته حين عارضوا وأخذتهم اللجاجة، ولولاه لما جبنوا وخشوا

لاحقًا من جالوت وجنوده ولأدركوا أن الهزيمة تأتى من الخذلان لا من عدد الرجال، وأن الغلبة تأتى على قدر الهمم والعزائم .. وهذا هو درس التاريخ!!

م ن
ت راب (٦١٣)
الطريق!

العند يورث الكفر*!!!

(٨)

يبدو من مراجعتى لمشاهد العناد الـذى أورث ويـورث الكفـر ، أن بنـى إسرائيل كان لهم من هذه المشاهد أوفى نصيب فى التاريخ .. من هذه المشاهد ما كان مع النبى إلياس عليه السلام ..

ويقول علماء الأنساب إنه إلياس بن ياسين بن فنحـاص بـن العيـزار بـن هارون ، وقيل إنه ابن ألعازر بن العيزار بن هارون ، فتجتمع هـذه الروايـات على أنه من نسل النبى هارون شقيق النبى موسى عليه السلام .

وروى ابن كثير فى قصص الأنبياء ، إنه قيل أنـه أُرسـل إلى أهـل بعلبـك غربى دمشق ، فدعاهم إلى الله عـز وجـل وإلى تـرك عبـادة صـنمٍ لهـم كـانوا يسمونه «بعلًا» ــ ويعبدونـه مـن دون الله، وقيـل إنهـا كانـت امـرأة اسـمها «بعل».. وقد ورد هذا الاسم فيما أوردته سورة الصافات عما كـان مـع النبـى إلياس عليه السلام .

تقول الآيات بعد قصة موسى وهارون : « وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللهَ رَبَّكُمْ

(*) المال ٢٠١٢/٦/١٤

وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ » (الصافات ١٢٣ ـ ١٣٣) ، فدلت الآيات بذلك على أن الرواية الأولى هى الأصح .

وتروى أن إلياس من الذين أكرمهم الله تعالى بالنبوة والرسالة، إذ قال لقومه : بنى إسرائيل : اتقوا الله وحده وخافوه، ولا تشركوا معه غيره، وكيف تدعون عبادته وتعبدون صنمًا من صنعكم لا حياة فيه ولا قيمة له، وتتركون عبادة الله الخالق الذى خلقكم وخلق آباءكم الأولين الماضين من قبلكم ؟!

ومن عتامة العقول، وتصلب العناد، أن لا يرى هؤلاء أن الصنم المصنوع بأيديهم ـ لا يمكن أن يكون ربًّا خالقًا مبدعًا متصرفًا يُعْبد .. فالجماد لا روح فيه، ولا إرادة له، ناهيك أن يكون خالقًا يتحكم فى الحياة ومصير الأحياء ويتجه إليه المخلوقون بالإجلال والعبادة، إلاَّ أن هذه البدهية الناصعة لم تصل إلى قلوب وعقول بنى إسرائيل، وأشاحوا عنها وأعرضوا، ولم يكفهم إعراضهم وتكذيبهم لنبى الله إلياس ، بل أرادوا قتله ، ويقال إنه هرب واختفى منهم فى الغار زمنًا حتى أهلك الله الملك وولى غيره ؛ فخرج من مكمنه إلى حيث دعا الملك الجديد إلى الإسلام لرب العالمين .

و إذ توعدت الآيات الكريمات من عاندوا فى الحق وكذّبوا ؛ بأنهم محضرون يوم القيامة للحساب والعقاب، فإنها أشادت بعباد الله حقًّا، الذين أخلصوا دينهم لله، وبشرتهم بأنهم ناجون من عذابه، لتختم الآيات بتحية إلى نبى الله إلياس، فتكفكف عنه فى تسرية ضمنية موجهة إلى رسول الله محمد ﷺ

الذى يروى له القرآن المجيد ما كان من قصص السابقين وما عاناه الرسل والأنبياء قبله من إعراض وعناد وتكذيب المخاطبين برسالات الله ونبواته ..

وأورد ابن كثير فى قصص الأنبياء، أن قول الآية : « سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ » . مرده إلى أن العرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها، كقولهم : إسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائين، وإلياس وإلياسين .. وقال البعض إن المقصود بآل يس ـ آل محمد ﷺ، والله تعالى أعلم .

وليس مقصدى هنا، أن أفصل سير الأنبياء وقصص النبوات، وإنما أُعنى باستقصاء وتتبع مشاهد وصور ومثالب ظاهرة العناد وما تورثه، وأن أتعقب جذورها وعوادمها فى تاريخ الآدميين، وكيف كانت تذهب بهم بعيدًا إلى مفارقة ومهاجرة العقل والمنطق، والإغراق فى العماء الذى اقترن دومًا بالجمود على هذا العناد جموداً أورثهم الكفر، وكان دائمًا بابًا لا ينغلق لكل ما عانته الإنسانية من ويلات !!

مــــن
تــــراب (٦١٤)
الطريق!

العند يورث الكفر*!!!
(٩)

استوقفنى مع « عماء » العناد وما يورثه، « عماء » الاندفاع وما يقود إليه .. وربما كان القاسم المشترك بينهما أنهما يؤديان ـ كل بطريقته ـ إلى إلغاء العقل، وحضرتنى هذه الخواطر وأنا أتابع قصة نبى الله : عُزَيْر ـ أو العُزَيْر ـ عليه السلام ..

و المشهور فيما أورد ابن كثير فى قصص الأنبياء، أنه من أنبياء بنى إسرائيل، وأن نبوته كانت فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، وأنه كان من حافظى التوراة، وأورد أن ابن عساكر نقل عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ » (التوبة ٣٠)، فذكر ابن سلام ما كان من حفظه للتوراة وقول بنى إسرائيل إن موسى لم يستطع أن يأتيهم بالتوراة إلاّ فى كتاب بينما جاءهم عُزَيْرٌ بها من غير كتاب، فرماه طائفة منهم وقالوا عُزَيْر ابن الله . وأورد المنتخب فى تفسير القرآن الكريم .. الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، أن عُزَيْرًا هو عزرا الكاهن من نسل هارون خرج من بابل مع رجوع اليهود الثانى بعد وفاة رسول الله موسى

(*) المال ٢٠١٢/٦/٢٠

عليه السلام بنحو ألف عام، وأنه كان يلقب بالكاتب لأنه كان يكتب فى شريعة موسى .. وأورد ابن كثير فى تفسيره قصة طويلة فحواها أنه أُلْهِم حفظ التوراة، وأورد القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن، أنه أُلْهِم حفظها بعد أن انمحت من قلوب اليهود الذين قتلوا الأنبياء من بعد موسى عليه السلام، وأن عُزَيْرًا أظهر كرامته فى حفظ التوراة لبنى إسرائيل، وجعلو يدرسونها عليه، ثم قيض لهم العثور على نسخة من التوراة كانت مدفونة فوجدوها مطابقة لما يقوله عُزَيْر .. فقر فى نفوسهم أنه صاحب معجزة. واندفع بعضهم يقول ـ فيما رواه ابن كثير فى قصص الأنبياء ـ إن موسى عليه السلام لم يأتهم بالتوراة إلاّ فى كتاب، بينما أتاهم عُزَيْرٌ بها من غير كتاب، فقالت طائفة منهم : عُزَيْرٌ ابن الله !!!

ويلاحظ أن ابن كثير لم يورد فى قصص الأنبياء ـ لم يورد الآية ٢٥٩ من سورة البقرة، فى استعراضه لسيرة النبى عُزَيْر .. وتقول الآية : « أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَـذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (البقرة ٢٥٩) .. ويبدو سبب عدم تبنى ابن كثير أن عُزَيْرًا هو المعنى بهذه الآية، حين نطالع ما أورده عنها فى تفسيره، فقد ذكر أنه توجد روايات متعددة اختلفت فى تحديد شخص المقصود بهذه الآية، فبينما قال البعض إنه عُزَيْر، وهو المشهور، قال آخرون إنه أرميا بن حلقيا، وقال غيرهم هو اسم الخضر عليه السلام، وقال آخرون إنه حزقيل بن يوار .

على أن فضيلة الشيخ الشعراوى، مع بيانه للروايات المختلفة وتسليمه ـ فى قصص الأنبياء ـ بأن التشخيص لا يعنيه،لأن الحق تبارك وتعالى حين يبهم التشخيص، فذلك لأمر يريده سبحانه، وأن الآية هنا ـ فى الآية ٢٥٩ من سورة البقرة ـ هى عرض قدرة الله تعالى، وآيته سبحانه للناس، وكيف طوى الزمن فى مسألة الطعام : « فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ » ـ فظلا كما هما لم يتغير منهما شيء، وكيف بسط الزمن فى مسألة الحمار: « وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ »، فإذا به عظام رميمة مبعثرة، وليدرك الذى جُعِلَتْ فيه المعجزة أنه لبث مائة عام .

ولكن فضيلة الشيخ الشعراوى يعقب بالرواية الراجحة، أن عُزَيْرًا هو الذى مَرَّ على تلك القرية كما قال جمهرة الفقهاء، وأنه كان من الأربعة الذين حفظوا التوراة : موسى، وعيسى ابن مريم، وعُزيْر، ويوشع، عليهم السلام .

على أن المهم ، هو جسامة الفرية فى ذاتها ، وأيًا كانت أسبابها ، أن عُزَيْرًا ابن الله ، فلا يشفع فيها أن يكون هو من جاءت فيه المعجزة بالآية ٢٥٩ من سورة البقرة ، أو أن تعزى لحفظه التوراة وظهور دقة حفظه لها حين ظهرت بعد اختفاء لسنواتٍ طويلة . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون ـ أى يشابهون ـ فيه قول الكفار من مشركى العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله . قاتلهم الله فأنى يؤفكون كما تقول الآية ، أى كيف ينصرفون عن الحق إلى هذا الباطل .. فسبحان الله تعالى أن يكون له ابن أو بنت ، تعالى عز وجل عما يصفون ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، وليس ولم يكن له كفوًا أحد .. ومجرد الادعاء بأن عُزَيْرًا ابن الله ، ينطوى على مساس بجلال الألوهية، يصور الله تعالى كفرد من الناس ، يتخذ ما يتخذونه من بنين أو

بنات أو يطلب ما يطلبه المخلوقون من العزوة بالبنين أو الذكر فى الدنيا بذريتهم بعد الرحيل .. فهو عز وجل الواحد الأحد ، الحى الذى لا يموت، مالك الملك والملكوت ، العزيز دائمًا بذاته ، الغنى عن عباده .

ما كان لهؤلاء الذين ظنوا هذه النبوة لله وادعوها ، أن ينجرفوا إلى هذه الخطيئة الكبرى ، لولا الهوى ولولا الاندفاع اللذين أسدلا ستارًا كثيفًا من العماء ، وجرفا العقل فى هاوية فقد فيها البصيرة والقدرة على النظر والتفكير والفهم ، وهذا هو بيت الداء !!!

العند يورث الكفر*؟!!

(١٠)

ينسب النبى يحيى، المعروف فى العبرية باسم يوحنا المعمدان، إلى النبى زكريا الذى كفل مريم وقام على خدمتها، وتمنى على ربه أن يهبه من لدنه ذرية طيبة، فلما نادته الملائكة ـ كما يروى القرآن ـ وهو قائم يصلى فى المحراب بأن الله تعالى يبشره بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيّدا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين، تعجب زكريا أن يكون له غلام وقد بلغ من الكبر عتيًّا، وامرأته عاقر، فأخبره ربه تبارك وتعالى أن ذلك عليه هيّن ـ سبحانه ـ فقد خلقه من قبل ولم يك شيئًا .

وتتفق المرويات الإسلامية، والعبرية، فى سيرة النبى يحيى، أو يوحنا المعمدان، على اختلاف غير مؤثر فى بعض التفاصيل، والمتفق عليه أنه عليه السلام كان زاهدًا متقشفًا صادق الوعد، وأقبل على دراسة الشريعة وأصولها وأحكامها حتى صار عالمًا متبحرًا فيها ، ثم وافته النبوة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ، وكان متقشفًا زاهدًا كثير العزلة والعكوف والإخبات ، سيدًا وحصورًا وعزوفًا عن المنكرات والشهوات ، و قد أمر بنى إسرائيل أن يعبدوا

(*) المال ٢٠١٢/٦/٢١

الله وحده ، وأن يصلوا ويصوموا ويتصدقوا ويذكروا الله عز وجل ، وبشرهم بملكوت السماء ، وفيه قال القرآن المجيد : « يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » (مريم ١٢) ووصفه القرآن الحكيم بأنه كان تقيًّا وبارًّا بوالديه ولم يكن جبّارًا عصيًّا، ومجّده بالسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا .

وأرجح الروايات أن ميلاده كان قبل مولد المسيح عليهما السلام بثلاثة إلى ستة أشهر، وربما سنة ٥ ق . م، وبدأ خدمته بتكريز التوبة بمعموديته فتقاطر عليه الناس واليهود من الكور المحيطة بالأردن، وأُثِرَ عنه فيما رواه إنجيل متى ٣ : ٢ ـ ٥ أنه كان ينادى فى الجموع : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء » . وروى أن المسيح عليه السلام جاء ليعمده، فأبى فى أول الأمر لما رآه من آية المسيح، ولكنه انصاع لرغبة المسيح وعمده بالماء وبروح القدس (يوحنا ١ : ٣١ ـ ٣٤)، وبهذه المعمودية انتهت الخدمة الأساسية للنبى يحيى أو يوحنا المعمدان، لتبدأ رسالة السيد المسيح عليه السلام، ولكن يحيى عليه السلام واصل وتلاميذه خدمتهم فى تعميد من يأتى إليهم، كما واصل شهادته للسيد المسيح قائلا عنه فيما تروى الأناجيل : « هو ذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » . (يوحنا ١ : ٢٩ و٣٦) .

وبعد قليل بدأت خيوط المأساة التى أورت كم يبلغ الشر بالناس، وماذا يفعل بهم الاستسلام للخطايا والمغريات . كان هيرودوس قد أخذ امرأة أخيه فيلبس، فوبخه يحيى عليه السلام لأجل هذا الشر وغيره من الشرور التى كان يقارفها، فضغن عليه هيرودوس وألقاه فى السجن، ولكنه أحجم عن المساس به لما عرف عنه من آيات، ومن حب الناس وتوقيرهم له، ولكن زوجته

هيروديا هى التى من حنقها عليه طفقت تكيد له وتحرض زوجها عليه لتكسر ما يحمله له من مهابة وتقدير أنه رجل بار وقديس، وانتهزت فرصة الوليمة الكبرى التى أقامها هيرودوس للاحتفال بعيد ميلاده، ودفعت ابنتها بارعة الجمال والجاذبية للرقص أمام هيرودوس التى أدركت بحسها الأنثوى أنه يتيه بها إعجابًا، وجاءتها الفرصة حينما انتشى بالخمر التى لعبت برأسه، فقال للابنة فاتنة الجمال والرقص : « اطلبى فأعطيك، حتى ولو كان نصف مملكتى » .. هنالك اغتنمت هيروديا الفرصة، وحرضت ابنتها أن تطلب من الملك أن يعطيها رأس يوحنا المعمدان على طبق . روع الملك من الطلب الجامح، ولكن مقاومته ضعفت تحت تأثير الخمر التى لعبت برأسه وأذهبت عقله، وبإغراء الجمال الذى حرك غرائزه وسحب بقية عقله، فأبى النكوص اغترارًا بملك زائل، وبمقولة عمياء أن كلمة الملوك وعد، وأن وعد الملوك لا يرد، فأصدر أمره الضرير، وإذا بالنبى يحيى عليه السلام يذبح ذبح الشاه، ويؤتى برأسه محمولًا على طبق يقدم للابنة الراقصة الهائمة بجمالها وفتنتها، فتسرع به إلى أمها التى تلقفته بالفرح والسرور، لما بلغت بغيتها المدفوعة بالضغن والحقد الذى أذهب عقلها، وأحالها إلى طاقة شر ضريرة، لا تعى ما تفعل، ولا تدرك جسامة هذا الجرم الشنيع الذى بقى على مر السنين مثلًا صارخًا لما يورثه العناد والضغن من عماء وكفر وهلاك !!

من تراب الطريق! (٦١٦)

العند يورث الكفر*!!!

(١١)

دأب الناس ـ عنادًا وجهلا ومكابرة، على إنكار الرسالات والنبوات، وإيذاء بل وقتل الأنبياء بغير حق، فكانت حجج الصدق هى برهان الأنبياء إلى من بعثوا إليهم لتوقظ عقولهم وضمائرهم من السبات، وتقرع الأفهام لترى أن ما أتى ويأتى به الأنبياء، من المحال أن يكون من صنع البشر .. وقد كتبنا فى كتابنا : الأديان والزمن والناس . كتاب الهلال سبتمبر ٢٠٠٦ ـ أن المعجزات والخوارق هى خروج عن قوانين السببية، وهى قوانين تحد البشر بإرادة الله عز شأنه الذى أقام ناموس الكون على سنة الأسباب، والسبب والمسبب ـ هذا الناموس السارى على الكون والناس، لا يسرى على الخالق المبدع عز شأنه، لأن إليه سبحانه مناط ومآل كل شىء، هو سبحانه السبب الأول، واجب الوجود لذاته .. « سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » (مريم ٣٥) ..

« إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » (النحل ٤٠) .

(*) المال ٢٠١٢/٦/٢٠

قلنا بكتاب الأديان والزمن والناس، أن « معجزة » أو «حجة صدق» نوح عليه السلام، كانت السفينة التى بكَّر بصنعها بأمر ربه، فنجته ومن معه من الطوفان الذى لم ينج منه أحد من الكافرين!(هود ٣٦ ـ ٤٤)، أما عاد ـ قوم هود الذين كذبوه وسخروا منه ـ فقد كانت آية الله إليهم الريح الصرصر العاتية التى دمرت كل شىء بأمر ربها (الأحقاف ٢٤، ٢٥) .. سخرها الله تعالى عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا حتى صار القوم صرعى كأعجاز نخل خاوية !! (الحاقة ٥ ـ ٨) .. أما صالح وممارة ثمود التى سألته أن يخرج لهم من الصخر ناقة، فإن الله سبحانه قد أيده بناقة انشق عنها الصخر لتكون لهم آية أمرهم الله ألاَّ يمسوها، إلاَّ أنهم خالفوا وعقروها، فأخذتهم « الصيحة » فأصبحوا فى ديارهم جاثمين !! (هود ٦١ ـ ٦٨) .. وقوم لوط الذين كانوا « أسرى » اعتياد عمل السيئات، فقد دمر سبحانه وتعالى قريتهم وجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود !! (هود ٧٧ ـ ٨٣) .. ومدين، قوم شعيب، الذين حذرهم من نقصهم الكيل والميزان أن يصيبهم مثل ما أصاب أقوام نوح وهود وصالح ولوط ـ فلما أبوا واعتدوا وسفهوا نبيهم وكذبوه وهددوه ـ أخذتهم « الصيحة » مثلما أخذت ثمود !! (هود ٩٤) .. وعلى هذه السنة توالت المعجزات الإلهية تأييدًا وحجة صدق للأنبياء والرسل، وقوارع كفيلة بإيقاظ الغرقى فى « شرنقة » الاعتياد والتجمد على عبادات الغابرين وإلف الكفر والشرك !! فإبراهيم الخليل عليه السلام، أيده الله بالنار التى أراد قومه تحريقه بها، فجعلها الله بردًا وسلامًا عليه !! (الأنبياء ٥١ ـ ٧٠) ..، وأيده الله سبحانه بمعجزة الطير الأربعة التى وزعها على قمم الجبال ثم دعاهن فأتينه سعيًا بأمر ربه ! (البقرة / ٢٦٠) ..

وموسى الذى كلمه الله تكليمًا وآتاه تسع آيات بينات فما ظنوه إلاَّ مسحورًا !! وأتاه آية العصا التى لقفت ما يأفكه السحرة فبطلت أعمالهم ! (الشعراء ٤٥، ٤٦، الأعراف ١١٥ ــ ١٢٠) وأتاه آية يده التى وضعها فخرجت من جيبه بيضاء بغير سوء ! (النمل ٧ ـ ١٢، الأعراف ١٠٨) ثم لم تمنع هذه الخوارق، ولا آية البحر الذى فرقه الله وأغرق المطاردين فى اليم ـ .. لم تمنع بنى إسرائيل من أن يتنكروا لموسى ويتخذوا العجل من بعده !! ..

بيد أن المفارقة الكبرى كانت فى المعجزات غير المسبوقة التى أيد بها السيد المسيح عليه السلام، وبين ما لاقاه برغمها من مأساة غير مسبوقة بدورها .. فمن قبل عيسى تأيد الأنبياء والرسل بكثير من الآيات والمعجزات، ثم كانت آية نبوة يحيى ولادته لأبوين شيخين طاعنين، أما السيد المسيح، فقد تأيد بمعجزات وخوارق لم يرها الناس من قبل، لم تنحصر فقط فى حمل مريم فيه بغير أب، وإنما شهد الناس من معجزاته ما لم تسبق به رؤية أو سماع، ما بين الكلام فى المهد صبيًا، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، ومع ذلك كله، ورغمه، لم تفلح هذه الخوارق والمعجزات والبراهين والآيات، فى زحزحة اليهود وإخراجهم من « شرنقة » الاعتياد، وإنما قادهم ما انحرفوا به عن الناموس وشريعة الله، وما ألفوه وتجمدوا عليه فى هذا الانحراف ـ قادهم إلى أشنع مأساة عرفها تاريخ الإنسانية !!

من تراب الطريق! (٦١٧)

العند يورث الكفر*!!!

(١٢)

لم تنزل دعوة المسيح عليه السلام لتناصب بنى إسرائيل العداء، ولا لتزاحمهم على أمجاد الدنيا، وإنما تنزلت بالهداية والمحبة، وقد أهملت شريعة موسى عليه السلام، وطغت الماديات حتى تحول الهيكل المقدس إلى مشروع ومزار تجارى، وتفرقت باليهود الطوائف إلى صدوقيين وفريسيين وآسينيين وغلاة وسامريين .. جاءت المسيحية لتعيد السواء إلى الخروج عن الناموس وشريعة التوحيد التى جاء بها موسى عليه السلام، حتى كان المسيح عليه السلام يقول :

« لم أرسل إلاَّ إلى الخراف الضالة إلى بيت إسرائيل» . (متى ١٥ : ٢٤) .. جاء المسيح ببساطة الضمير يدعو إلى ملكوت السماء فى الضمير والوجدان، لا فى القصور والعروش .. ولكن شنف له أصحاب القصور والثروات، وكهنة الطوائف والغلاة. حمل إلى بنى إسرائيل شريعة الحب فواجهوه بالجحود والتجبر والرياء.. وشرنقة العادة أو الاعتياد.

قاوم بنو إسرائيل دعوة المسيح عليه السلام، مقاومة عاتية ضروس، تتمسك بالقديم وتقاتل من أجله ، وترفض الهداية ولا تتردد فى شن الحرب

(*) المال ٢٠١٢/٧/١٧

عليها .. واجه السيد المسيح ما واجهته الرسالات والنبوات من قبله من صد ورفض ومقاومة وإيذاء خرج عن كل الحدود، وجمع بنى إسرائيل على ذلك ما جمع السالفين من عناد وإنكار وصد ومكابرة، ومن الحاجة جهولة يغذيها العند الذى يورث الكفر .. لم يردهم عن عنادهم ما جاء به عيسى عليه السلام من معجزات وخوارق لم يرها الناس من قبل. حملت فيه مريم بغير أب، وكلم الناس فى المهد صبيًا، وجعل الماء ـ بأمر ربه ـ خمرًا فى عرس « قانا الجليل» وصور الطين على هيئة الطير ونفخ فيه فصارت طيرًا بإذن الله، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى بإذن ربه، وأخبر بنى إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون فى بيوتهم، فلم تزدهم هذه الخوارق والمعجزات الا عنادًا ومكابرة، وجمحوا إلى تأويل دعوته بأنها مزاحمة للرب، ويخبر القرآن المجيد كيف درجوا مع عيسى عليه السلام على ما اعتادوه من العناد والإعنات وقتلهم الأنبياء بغير حق.. فجاء بسورة النساء من بيان الله تعالى إلى نبيه " يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا*وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا*فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلًا*وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا*وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ

فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا*بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »(النساء ١٥٣ - ١٥٨).

فى ليلة حالكة السواد، اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون بعد أن كثرت آيات السيد المسيح عليه السلام، والتفت حوله الجموع، فجعلوا يتآمرون ويتشاورون فيما يفعلون به، فقال لهم « قيافا » رئيس الكهنة: « إنه خير لنا أن يموت واحد ولا تهلك أمة كلها ».. ومن ليلتها قر قرارهم أن يقتلوه، وجعلوا يتحينون الفرصة، حتى تقدم إليهم الخائن يهوذا الإسخريوطى ـ أحد تلاميذ المسيح، وأخذ يساومهم على تسليمه إليهم، فجعلوا له ثلاثين من الفضة لقاء ذلك !

وقد ذكر القرآن المجيد أن عيسى عليه السلام أحس منهم الكفر والغدر، وتقول الروايات إنه عليه السلام علم بأن الساعة قد حانت، وقال لتلاميذه : «ها نحن صاعدون إلى أورشليم . وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويسلمونه إلى الأمم، فيهزأون به ويجلدونه ويتفلون عليه ويقتلونه وفى اليوم الثالث يقوم ».

وجاء بإنجيل لوقا : « وبينما كان الجميع يتعجبون من كل ما عمله يسوع، قال لتلاميذه : « لتدخل هذه الكلمات آذانكم : إن ابن الإنسان على وشك أن يسلم إلى أيدى الناس! » إلاَّ أنهم لم يفهموا هذا القول، وقد أغلق عليهم فلم يدركوه، وخافوا أن يسألوه عنه ».(لوقا ٩: ٤٤، ٤٥)، وجاء برواية إنجيل متى : « وفيما كانوا يتنقلون فى الجليل، قال يسوع لتلاميذه : « ابن الإنسان على وشك أن يسلم إلى أيدى الناس، فيقتلونه، وفى اليوم الثالث يقوم . فحزنوا حزنًا شديدًا » (متى ١٧ : ٢٢، ٢٣) .

من
تراب (٦١٨)
الطريق!

العند يورث الكفر*!!!

(١٣)

يبدو من رواية إنجيل مرقس أن المسيح عليه السلام كان يومئ إلى تلاميذه بما سيلاقيه، ويؤهلهم لما سوف يكون، فورد بالسفر الثامن : « وأخذ يعلمهم أن ابن الإنسان لا بد أن يتألم كثيرًا، ويرفضه الشيوخ ورؤساء الكهنة، ويقتل، وبعد ثلاثة أيام يقوم . وقد تحدث عن هذا الأمر صراحة. فانتحى به بطرس جانبًا وأخذ يوبخه . ولكنه التفت ونظر إلى تلاميذه وزجر بطرس قائلًا : "اغرب من أمامى ياشيطان، لأنك تفكر لا بأمور الله بل بأمور الناس ! » (مرقس ٨ : ٣١ـ ٣٣).

ويتابع إنجيل مرقس : « ثم دعا الجمع من تلاميذه، وقال لهم : إن أراد أحد أن يسير ورائى، فلينكر نفسه، ويحمل صليبه، ويتبعنى، فأىّ من أراد أن يخلص نفسه يخسرها . ولكن من يخسر نفسه من أجل الإنجيل فهو يخلصها . فماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله، وخسر نفسه ؟ أو ماذا يقدم الإنسان فداءً عن نفسه ؟ » (مرقس ٨ : ٣٤ – ٣٨).

وجاء أيضًا بإنجيل مرقس : « ثم انصرفوا من هناك واجتازوا منطقة الجليل، ولم يرد ـ أى المسيح ـ أن يَعْلم به أحد، لأنه كان يعلم تلاميذه فيقول

(*) المال ٢٠١٢/٧/١٨

لهم : « إن ابن الإنسان سيسلم إلى أيدى الناس، فيقتلونه، وبعد قتله يقوم فى اليوم الثالث »، ولكنهم لم يفهموا هذا القول، وخافوا أن يسألوه ».(مرقس ٩ : ٣٠ـ٣٢) .

وجاء بإنجيل يوحنا أن الفريسيين ندموا بعد أن جربوا المسيح عليه السلام فأقام لعازر من قبره من بين الأموات، وجعلوا يلومون أنفسهم أنهم لم يستفيدوا شيئًا وها هو المسيح قد انطلق العالم كله وراءه . وأضاف أن من بين الذين قصدوا أورشليم للعبادة أثناء العيد ـ بعض اليونانيين، وسألوا فيلبس أن يروا المسيح، فذهب إليه هو وأندراوس ليخبراه . ويورد إنجيل يوحنا : « فقال يسوع لهما قد اقتربت ساعة تمجيد ابن الإنسان . الحق الحق أقول لكم إن حَبَّةَ الحنطة تبقى وحيدة إن لم تقع فى الأرض وتمت. أما إذا ماتت، فإنها تنتج حَبًّا كثيرًا. من يتمسك بحياته يخسرها. ومن نبذها فى هذا العالم يوفرها للحياة الأبدية. من أراد أن يخدمنى فليتبعنى. وحيث أكون أنا يكون خادمى أيضًا. وكل من يخدمنى يكرمه أبى ».(يوحنا ١٢ : ٢٣-٢٦).

وتروى الأناجيل كيف تكالب اليهود، يرشدهم الخائن يهوذا الإسخريوطى، وكيف أرسلهم رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ حيث تقدم يهوذا فقبَّل المسيح وفقًا للعلامة التى اتفق معهم عليها ليرشدهم إليه، فقال له عليه السلام : « يا يهوذا، أبقبلةٍ تسلمنى؟! » . وحين ألقى الجنود أيديهم على المسيح، لم يطق سمعان بطرس صبرًا، فاستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه، فنهاه المسيح، وقال له : « رد سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلكون » !

وفى طريق الآلام، جعل جند الظلم، يسخرون من المسيح عليه السلام ويضربونه، ويغطون وجهه، ويوجهون إليه السباب والشتائم (لوقا ٢٢ :

٦٣، ٦٤) وساقوه إلى قيافا، حيث اجتمع عليه رؤساء الكهنة والشيوخ والكهنة، وأخذوا يبحثون عن شهادة زور ليقتلوه بها، ولما لم يجدوا تلقفوا عبارة ليؤولوها على هواهم، ويحكموا عليه بأنه يستحق الموت، وجعل البعض يبصقون عليه، ويغطون وجهه، ويلطمونه ويصفعونه قائلين : تنبأ من لطمك !! . (مرقس ١٤ : ٥٣-٦٥) .

وتروى الأناجيل أن بيلاطس الذى ساقوا إليه السيد المسيح، جعل يتملص ويقول لرؤساء الكهنة والجموع : « لا أجد ذنبًا فى هذا الإنسان!». ولكنهم استمروا فى إلحاحهم وتحريضهم، حتى إذا ما سمع بيلاطس عبارة تفيد أن المسيح من الجليل، تعلل بأنه يتبع سلطة هيرودوس، وأحاله عليه، إلاَّ أنه رده إليه بعد أن لاقى عنده ما لاقاه من إهانات وإيذاءات السفهاء، فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والقواد والشعب، وقال لهم فيما يرويه إنجيل لوقا : « لم أجد فى هذا الإنسان أى ذنب مما تتهمونه به، ولا وجد هيرودوس أيضًا، إذ رده إلينا . وهو أنه لم يفعل شيئًا يستوجب الموت. فاجلده إذن وأطلقه (وكان عليه أن يطلق لهم فى كل عيد سجينًا واحدًا) ولكنهم صرخوا بجملتهم : « اقتل هذا، وأطلق لنا باراباس ! » (لوقا ٢٣: ١٤-١٨).

وبينما يجرى الجلد بما يصاحبه من إيذاءات وسباب وشتائم وسخرية وتهكم، جعل هؤلاء يصرخون: « اصلبه ! اصلبه! » . ولا يستمعون لقول بيلاطس : « فأى شر فعل هذا؟ لم أجد فيه ذنبًا عقوبته الموت » . (لوقا٢٣ : ٢٣)، ولكنهم أخذوا يلحون صارخين مع إيقاع الجلد، طالبين أن يصلب، فتغلبت غوغائيتهم، وانطلقوا بالأسير إلى الصلب وهو يحمل صليبه، وهم يبصقون عليه، ويضربونه على رأسه بالقصبة التى أخذوها منه، ويوسعونه سخرية واستهزاءً!!!

تروى الأناجيل، ما جرى بمشهد الصلب، وورد بإنجيل متى وإنجيل مرقس، أنه لما جاءت الساعة الثانية عشرة ظهرًا، حل الظلام على الأرض كلها حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، وأنه فى هذه الساعة صرخ الموضوع على الصليب بصوت عظيم : " أَلُوى أَلُوى، لما شبقتنى؟ » أى: « إلهى إلهى، لماذا تركتنى ؟ » (متى ٢٨: ٤٥، ٤٦، مرقس ١٥ : ٣٣-٣٥)، وجاء برواية لوقا أنه صرخ بصوت عظيم، وقال : « يا أبى، فى يديك أستودع روحى! » (لوقا ٢٣ : ٤٦).

وأورد القرآن المجيد، أن من قامت اليهود بصلبه، ليس شخص السيد المسيح عليه السلام، ولكن شبه لهم، فجاء بسورة النساء : « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ». (النساء ١٥٧-١٥٨).

ولا أحب أن أتوقف عند الترجيح بين عقيدتىْ المسيحية والإسلام فى شخص المصلوب، وبرغم إيمانى بعقيدة القرآن الكريم، فإن الذى لم يقع عليه خلاف أن اليهود مارست هذا التعذيب وأجرت ما أجرته من جلد وإيذاء وسخرية واستهزاء وصلب، وهى تعتقد بيقين أن الشخص الذى أجرت عليه هذه العذابات هو هو شخص السيد المسيح عليه السلام . وذلك بذاته دالٌّ على مدى ما يورثه العناد ويؤدى إليه من مواقف وتصرفات تخرج بالمعاند عن العقل والهداية، وتشطح به إلى دوائر لا تقرها الضمائر ولا العقول والأفهام، ولذلك قالوا : «العند يورث الكفر» !!

من تراب الطريق! (٦١٩)

العند يورث الكفر*!!!

(١٤)

لم يكن ما استقبل به الكفار والمشركون ـ النبوة المحمدية، بأقل ولا أخف مما لاقوا به كافة الرسالات والنبوات من قبل . لم يردهم عن هذا العناد والإعنات، والصد والإيذاء ـ أن النبوة المحمدية أتت بالتوحيد الذى تقبله العقول والضمائر، ولا كونها نبوة هداية ومؤاخاة، ولا أنها لا تبتغى مجدًا ولا تزاحم أحدًا على مجد، ولا أنها تدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تجادل أحدًا إلاّ بالتى هى أحسن . ولكنهم شنفوا لهذه الدعوة وحاربوها منذ اللحظة التى تسربت إليهم أمارات تنبئ بأن هناك جديدًا يدعو إليه محمد، وأنه يجتمع مع قليلين ـ آمنوا به وبدعوته ـ بدار الأرقم بن أبى الأرقم، وقبل أن يسمعوا منه، أو يعقلوا ما تسرب إليهم عنه، شنّوا عليه حربًا شعواء .. سارعوا بعد التعجب من دعوته، إلى اتهامه بالجنون والكهانة، ولا يراعون حرمة الدم أو القرابة أو الصهر، فما إن بدأ بدعوة عشيرته الأقربين، حتى انفلت عمه أبولهب مهددًا ومتوعدًا ومحرضًا بنى هاشم ليأخذوا على يديه .. وبادر زعماء الكفار بالاجتماع بظاهر الكعبة، ليتناوبوا اتهام محمد بشتى وأبشع الاتهامات . منهم من يقول إنه مجنون، ومنهم من يقول كاهن، ومنهم من

(*) المال ٢٠١٢/٧/١٩

يقول شاعر، ولكن اتهاماتهم تتعثر، ولا تصيب منطقًا أو توافق إقناعًا، فيشتط غضبهم، ويطيش صوابهم، ويتخبطون فى اندفاعهم الأعمى الذى تولده المكابرة ويغذيه العناد، ولا يرون ـ بعنادهم ـ ما فى دعوته من توحيد منطقى للإله الواحد، ولا ما فى عبادتهم للأصنام أو تشفعهم بها ـ من ضلالة غبية لا يقرها عقل . وإذ يعز عليهم ذلك، ينتدبون أبا جهل : عمرو بن هشام، ليذهب وأمية بن خلف، للقاء أبى طالب عم النبى، ليرد عنهم ابن أخيه، ويكفه عن عيب دينهم وآلهتهم التى يعبدونها من دون الله، ويجارون فى ذلك ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم .. وإما أن يخلى بينهم وبينه ليكفوه أمره . فأبى عليهم أبو طالب، وعز عليه أن يخذل ابن أخيه الذى قال له : « ياعم ! .. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » .

فلما علموا موقف أبى طالب، عادوا فاجتمعوا وتشاوروا يدفعهم عنادهم إلى فكرة ضريرة لا يعقلها عاقل . أن يقدموا إلى أبى طالب ـ عمارة بن الوليد بقالة إنه أنهد فتيان قريش وأجملهم، ليتخذه لنفسه ولدًا، وله عقله ونصره، على أن يسلم إليهم محمدًا . هذا الذى خالف دينهم، وسفه آلهتهم وأحلامهم، وفرق جماعتهم . ولكن أبا طالب يردهم بالمنطق الذى عجزوا بعنادهم عن رؤيته : « لبئس ما تسومننى ! أتعطونى ابنكم أغذيه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟! »

لا ييأس عناد الكفار ومكابرتهم، فيعاودون للمرة الثالثة الذهاب إلى أبى طالب، لينصفهم من ابن أخيه، فلما دعاه إليهم، وسألوه إلام يدعوهم، وقال لهم أن يقولوا : « لا إله إلاّ الله » .. غالبهم عنادهم الضرير فأعماهم عن رؤية

الحق، وجعلوا يتندرون كيف يدعوهم محمد إلى عبادة إله واحد، فنزلت الآيات من سورة ص تقول :

« أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلأ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاّ اخْتِلاقٌ * أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ * جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلاّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ »(سورة ص ٥ ـ ١٤)

اجتمع رؤوس قريش وكبارها فى حجر الكعبة التى حولوها عن دين إبراهيم وإسماعيل، إلى ساحة عبادة للأوثان والأصنام .. فأخذ أبو جهل يستثيرهم ويؤنبهم على سكوتهم على محمد حتى تجرأ عليهم، وسانده أبوسفيان مؤنبًا لهم أن أعز فتيان قريش قد بدءوا يتابعون دعوته، وتتعالى صيحات التحريض، فيعرض عليهم عتبة بن ربيعة، وكان على شىء من العقل والحكمة، أن يقوم إلى محمد فيعرض عليه أمورًا لعله يقبلها فيعطونها أيها شاء ويكف عنهم .

ولكن عتبة يفجأ بما لم يحسب له حسابًا، فقد عرض على محمد عرضًا ظن أنه لا يقاوم .. فقال له : « يا ابن أخى .. إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا .. وإن كنت إنما تريد به شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك .. وإن كنت إنما

تريد به مُلكًا ملكناك علينا .. وإن كان هذا الوحى الذى يأتيك رئيًا تـراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه».

وظن عتبة، وقد فرغ من عرضه هذا السخى، أنه قد نجح فى سـفارته، وأن محمدًا لا بد أن يستجيب إلى ما عرضه عليه، ولكن النبى عليـه الـسلام يتلـو عليه :« حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُـصِّلَتْ آيَاتُـهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّـا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَـرُهُمْ فَهُـمْ لا يَـسْمَعُونَ * وَقَـالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَـابٌ فَاعْمَـلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُـمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » (فـصلـت ١ ـ ٨) .

هنالك ينبهر عتبة بما كان لديه من عقل، فلا يملك إلاّ أن يقول محدثًا نفسه كالحالم : « ألا ما أحلى هذا الكـلام » .. وينـصرف إلى قومـه مبهـورًا، فيلقـاه الطواغيت فى مجلسهم منكرين عليه مظهره، ويقول قائلهم أبو جهـل، زعـيم العناد والمعاندين : « واللاّت والعزى لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به » !

لم يقبل القرشيون ما أتاهم به عتبة عما سمعه من قرآن أخذ بلبه، ولا قبلوا نصيحته أن يخلوا بين محمد وبين ما هو فيه، بل يتهمونه بأن محمدًا قد سـحره، ويتهمون بذلك أيضًا الوليد بن المغيرة حين أفلت منه أن ما سمعه من محمد لا يقوله بشر، فيقول قائلهم إنه واللاّت والعزى قد صبأ .

لم يتوقف أحد من هؤلاء الكبار، وهم زعماء أكبر القبائل العربية، ليسأل نفسه كيف يدع الله الواحد الأحد، الذى خلق، ليقسم باللاّت والعزّى .. واللاّت هى الشمس، وكانت عبادتها شائعة فى اليمن والحجاز، ولها معبد فى الطائف، أمّا العزّى، فهى كوكب الزهرة، وكانت تعبدها قبيلة غطفان وترمز لها بشجرة سَمُرَة، وقد نصب المشركون لكل منهما صنمًا من الأحجار يرمز له فى جوف الكعبة، ويبذلون إليه العبادة والقرابين، ولا يجدون بأسًا من القسم بهما من دون الله، دون أن يعقلوا معنًى ولا مغزًى لهذا القسم الضرير الذى يقدس أحجارًا من صنع أيديهم، لا تعى ولا تدرك، ومع ذلك يعظمونها ويقدمون لها القرابين !!!

العند يورث الكفر*!!!

(١٥)

يقول الرواة أن قريشًا عقدت مجلسًا جعلت تعتب فيه على الوليد بن المغيرة قوله إن ما سمعه من محمد لا يقوله بشر، فاتهمه أبو سفيان بأنه قد صبأ، وما يخشى إلاَّ أن تصبأ قريش كلها لما أبداه وأبداه من قبله عتبة بن ربيعة، وجعل أبو سفيان وأبو جهل يلومانه أن قومه يكرهون ما قاله من إطراء لكلام محمد، حتى أنهم فكروا فى أن يجمعوا له مالا ليعطوه إياه ليتعرض لمحمد بما ينقض ما سلف منه، فعز ذلك على الوليد، وانتفض غاضبًا يقول لهما : قد علمت قريش أننى أكثرها مالًا ! فطفق أبو سفيان وأبو جهل يزينان له الرجوع عما أبداه، ولا عليه إلاَّ أن يقول ما يقنع قومه بأنه منكر لمحمد، كاره لكلامه .. ولكن الوليد استنكر فى البداية، وتساءل ماذا يقول، وقد لمس وهو العالم بالشعر وقصيده، أن لقول محمد حلاوة، وعليه طلاوة، وأعلاه مثمر، وأسفله مغدق .. وأنه يعلو ولا يعلى عليه، وأنه ليحطم ما تحته ! ولكن أبا سفيان وأبا جهل لم ييأسا، وظلا وراءه يحذرانه من غضب قومه، ويزينان له أن يصلح ما أفسده كلامه، فجعل الوليد يتردد، ويقبل ويدبر، ويفكر ويعاود التفكير، ويغالب نفسه حتى غلبها، ثم تخاذل وذهب

(*) المال ٢٠١٢/٧/٢٣

إلى جمهرة من قريش فى الكعبة، ليقول لهم فى حق محمد ﷺ ما يرضيهم، حيث وسوس له شيطانه أن يدعى أن محمدًا ﷺ ساحر، لأنه يفرق بسحره وتأثيره بين الرجل وأهله وولده ومواليه !!!

وبينما محمد ﷺ فى خلوته وتعبده وتحنثه، يتنزل عليه الروح الأمين، فيوحى له من كلمات ربه : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ » (المدثر ٢٧)

تنعى الآيات على المكذب تكذيبه ومعاندته بعد أن استبان له الحق، فقد أنعم الله عليه من المال والولد، وجعل له مالًا ممدودًا واسعًا، ورزقه بسطة من الولد يباهى ويفاخر بهم مكة، ومع ذلك يطمع فى المزيد، ثم لا يقدر نعمة الله عليه، فيرتد معاندًا مكذبًا لما سبق أن شهد به، ليحارب الله ورسوله ويطعن فيهما، فاستحق بذلك اللعنة والهلاك على سوء نيته وتدبيره، وأن يصلى جهنم جزاء ما زلف منه، وجزاء عناده الذى قالت عنه الآيات : « كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا » (المدثر ١٦) .

اجتمع هؤلاء الطواغيت على الإنكار والعناد، فلحقوا بمن عصوا الرسل والأنبياء واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فخابوا بجبروتهم وعنادهم، وباءوا بالخسران المبين . فيهم وعن عنادهم وآفة العناد تقول الآيات البينات :

« وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» (هود ٥٩)

« وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » (إبراهيم ١٥)

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ » (ق ٢٤)

لا يقف صلف الكفار والمشركين وعنادهم وغطرستهم عند حد، فيتابعون حربهم الضروس، ويسعون إلى إعنات محمد ﷺ بأن يسير الجبال عن بلادهم، أو يجعل لهم قصورًا من ذهب حتى يؤمنوا به، أو يسقط عليهم كسفًا من السماء حتى يصدقوه، فيتنزل عليه من آيات ربه وصفًا وبيانًا لحال هذا العناد الذى به ركب المعاندون كل مركب صعب للإعنات والإنكار .. فتقول الآيات :

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا * وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولًا * قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » (الإسراء ٨٩ ـ ٩٦) .

من تراب الطريق! (٦٢١)

العند يورث الكفر*!!! (١٦)

طالت فصول التعذيب التى عقدتها قريش ومن والاها للمستضعفين من المسلمين، وشهدت بطحاء مكة صنوفًا من صور تعذيب العبيد والضعفاء، ولم ينج منها الأشراف .. فقد طاش صواب قريش وتراجع ما بقى من عقلها، بضغط العناد والمكابرة، فشهدت رمضاء مكة، وبيوت السراة، تعذيب بلال بن رباح، وعمار بن ياسر وآله، وبطش الحكم بن العاص بابن أخيه عثمان بن عفان، وقسوة سعيد بن العاص واشتداده على ابنه خالد حتى انكسرت المقرعة التى يضربه بها على رأسه .. وشهدت أزقة مكة طلحة بن عبيد الله ويداه مقيدتان إلى عنقه، وصبيان مكة والسفهاء يدفعونه ويسخرون منه ومن ورائهم أمه تدمدم وتسبه وتشجعهم على الاستهزاء به، ولكن الفتى صبر لا يلين . بينما يلاقى صديقه الزبير بن العوام تحريق عمه له وخنقه ليكفر برب محمد حتى ينجو من العذاب، ولكن الزبير لا يجزع ولا يتراجع، كذلك مصعب بن عمير الذى جزعت أمه على حبها الشديد له، من إسلامه، فوأدت عاطفتها وجعلت تهدده وتحرمه من مالها حتى صار الفتى الناهد الوسيم يشاهد بمكة وليس عليه إلا أسمال بالية !

(*) المال ٢٠١٢/٧/٢٤

وفى بيت أم أنمار، وهى امرأة من خزاعة، قاسية القلب، انعقدت محرقة للفتى خباب بن الأرت ليرجع عن إيمانه بمحمد، حتى تقرح جسده بما يشبه البرص من جراء التحريق، ولا يملك النبى عليه السلام، إلا أن يدعو له بالنصر . وتشتط أم سعد بن أبى وقاص فتضرب عن الطعام والشراب حتى تثنى ولدها عن إسلامه، فيقول لها وهو البار بها : « تعلمين والله يا أماه، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركت دينى هذا لشىء » . ويتطاول طواغيت قريش وغلمانها فيؤذون النبى ﷺ ، أمام بيته، وفى صلاته وركوعه، ويلاحقون المسلمين بكل صنوف الإيذاء والتعذيب، حتى لم يجد النبى عليه الصلاة والسلام مفرًا من أن يأذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، ولكن قريشًا لا تهدأ ولا تستكين، فترسل فى أعقاب المهاجرين عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة ليؤلبا عليهم البطارقة والنجاشى، ويزداد سعار الكفار فيحصرون بنى هاشم والنبى عليه السلام ثلاث سنوات فى شعاب مكة، لا يزارون ولا يزورون، ولا يباع إليهم ولا يبتاعون، ولا يتزوج منهم أحد، ولا تسمح قريش لهم بأن يصهروا إلى أحد منها .. والحياة المحصورة فى الشعب لا شىء فيها من أسباب الحياة .. لا كلأ ولا مرعى ولا سبيل إلى الماء إلاّ بشق الأنفس، وتمعن قريش فى هذا الحصار الضرير حتى تلاحق ببطشها من تأخذه الشفقة فيسعى إلى تسريب شىء من الطعام إلى المحاصرين، ويدفع أبو لهب ولديه ليطلقا ابنتى محمد ﷺ، حتى إذا ما انتهى الحصار بعد لأى، استأنف الكفار والمعاندون ملاحقتهم وإيذاءهم لرسول الله ﷺ، فيحثو أحد السفهاء التراب على رأسه الشريف وهو راجع من دفن خديجة رضى الله عنها، ثم لا يكاد يمضى يوم أو يومان، إلاّ وينتهز الطواغيت

فرصة خلو النبى ﷺ إلى صلاته فى حجر الكعبة، فيتهجم عليه السفهاء وهو فى صلاته .. هذا يجأه، وهذا يدفعه بعنف، ساخرين منه أن جعل الآلهة إلهًا واحدًا !! ويسرف عقبة بن أبى معيط فيحاول خنقه بثوبه، ويتكالب عليه الجمع، لولا أن تصادف مرور أبى بكر فطار إليه يدفع عنه هؤلاء السفهاء، وهو يصرخ فيهم : « أتقتلون رجلًا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » ؟!

ولم يكن ما لاقاه عليه الصلاة والسلام بالطائف، بأقل مما لاقاه بمكة، فيتنطع عبد ياليل ويقول للنبى ساخرًا : « لأقطعن وأهتكن ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك »!.. ويقفى شقيقه مسعود مستهزئًا : « أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك » ؟!، بينما يقول ثالثهم حبيب : « واللات لا أكلمك أبدًا .. لئن كنت رسولًا من الله كما تقول لأنت أعظم حقًا من أن أكلمك، ولئن كنت تكذب على الله لأنت أشر من أن أكلمك » .. ! ثم لا يكتفى هؤلاء الإخوة بذلك، فيحرضون عليه السفهاء والغلمان فيتابعونه فى أزقة الطائف، ويقعدون له فى طريقه صفين من المتأهبين بكل الأدوات لإيذائه، يسبونه ويصيحون به، ويقذفونه بالأحجار، ولا يرفع عليه السلام رجلًا ولا يضع رجلًا إلاّ رضخوها بالأحجار حتى دميت رجلاه وتخضبت نعلاه بالدماء .. كلما أذلقته الحجارة، يقعد عليه الصلاة والسلام إلى الأرض، فيأخذون بعضديه ويقيمونه فإذا مشى يرجمونه وهم يتضاحكون مستهزئين، والنبى ﷺ لا يستطيع أن يستخلص نفسه منهم إلاّ بعناء شديد ومشقة بالغة .. حتى استطاع بعد طول معاناة أن يفيء إلى حائط بستان على مرمى البصر، ويرتمى مكدودًا مخضبًا بالدماء تحت ظل كرمة، وتهتاج مشاعره من الضيم الذى

يلاقيه، والأذى الذى يلاحقه، ممن أراد هدايتهم إلى الله الواحد الأحد، فلا يصادف منهم إلاّ العناد العذاب الذى تنوء به الجبال الرواسى .. فتسيل عبراته، وهو يتجه إلى السماء داعيًا ربه :-

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلّة حيلتى، وهوانى على الناس .. يا أرحم الراحمين .. أنت رب المستضعفين وأنت ربى .. إلى من تكلنى ؟! إلى بعيد يتجهمنى، أو إلى عدو ملّكته أمرى ؟!! . إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى .. ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك أو تحل علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك » !

فى طريقه الشاق الطويل عائدًا فريدًا وحيدًا إلى مكة، بعد أن لاقى ما لاقاه من عنت ثقيف وتعديات واستهزاء غلمان الطائف وسفهائها .. طفق عليه السلام يسائل نفسه مشفقًا كيف سيستقبله طواغيت قريش وقد علموا ما لا بد قد تناهى إليهم من أمر ما فعلته ثقيف وسفهاء الطائف به .. وإنه عليه السلام لفى طريق عودته حزينًا مهمومًا من أفاعيل من أراد لهم الهداية بإبلاغهم رسالة ربه فقابلوه بالصد والعناد والنكير والإعنات والعدوان والاستهزاء .. يلم به هاتف من الوحى أنه إن شاء فإن الله يطبق على قومه الأخشبين (الأخشب من الجبال الخشن الغليظ الحجارة)، ويخسف بهم الأرض .. ولكنه صلى الله عليه وسلم لا يملك بفيض رفقه وكرمه وحلمه ورحمته، إلّا أن يقول لجبريل عليه السلام : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عز وجل ولا يشرك به شيئًا ».

من تراب الطريق! (٦٢٢)

العند يورث الكفر*!!!

(١٧)

عبر كل مشاهد السيرة المحمدية، إلى أن أتم رسالته عليه الصلاة والسلام قبل أن يلاقى ربه، لم تنقطع أو تهدأ مؤامرات الكفار والمشركين، أو صدودهم ونكالهم وعنادهم وتربصهم بالدعوة وبالرسولﷺ وبالمسلمين .. لا تهدأ إن هدأت، إلاَّ لتستأنف .. اغتنموا رحلة الإسراء والمعراج ليشنوا حملة ضارية من النكال والتشكيك، واعتقدوها فرصة للنيل من الدعوة والداعى، فلما خاب سعيهم، وانقلب تآمرهم عليهم، واشتد الإيمان برسالة النبىﷺ، لم تيأس قريش، ولم تفارق غطرستها وعنادها وصلفها وغرورها وصدها عن سبيل الله .. وجعلت تتعقب الدعوة بخارج مكة كما تعقبتها بمكة، وجعلت تلاحق النبىﷺ فى جولاته ولقاءاته بتجمعات الحجيج فى موسم الحج .. فأرسلت من ورائه أبا لهب ليسخر منه للقبائل، ويحرض الناس عليه، ويتابعه مناديًا بين الحجيج : « يا قوم إن هذا الرجل إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن بنى مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، يا أيها الناس إنه كاذب فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه » !

(*) المال ٢٠١٢/٧/٢٥

.. لا يلتفت أبو لهب إلى ما فى كلماته هو من ضلالة، ومثله أبو جهل الذى جعل بدوره ينادى فى الناس : « يا أيها الناس، لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى .. يريد أن تدعوا عبادة آلهتكم وما ورثتموه عن آبائكم وأجدادكم » .

وأنت تلحظ أن الداء الذى أصاب الأمم من قبلهم، هو ذات الداء الذى أصابهم ..لا يدفعهم فيه إلاَّ صلفهم وعنادهم، وأنهم على هذا وجدوا آباءهم، فعلوا كما فعل قوم إبراهيم من عبادة أصنام من صنعهم، وإجلال أحجار وأوثان لا تضر ولا تنفع، واعتبار هذه الضلالة ديانة تعتنق مادامت موروثة ـ بحكم العادة ـ عن الآباء والأجداد !! وهم لذلك أنكروا البعث، وقالوا ما هى إلاَّ حياتهم الدنيا يموتون فيها ويحيون وما يهلكهم إلاَّ الدهر، ويستكثرون أن تنزل الدعوة على محمد وتترك الوليد بن المغيرة فى عزه وجاهه ومنعته، وهو سيد قريش بغير منازع .. أو مسعود بن عمرو الثقفى، سيد ثقيف وعظيم الطائف الذى لا يطاوله مطاول، يحسبون رسالات الأنبياء سباقًا على جاه الدنيا ولا يرون ما فيها من اصطفاء وهداية .. وتنزل على النبىﷺ من سورة الجاثية قول الحق عز وجل : « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ*وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ» (الجاثية ٣١-٣٢).

لاتدرك عقولهم فى عنادهم الذى غَلَّ عقولهم، أن أمر الحق سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، فيستهولون أن يحيى العظام وهى رميم، ويجاهرون محمدًا بالسخرية والاستهزاء، فيتلو عليهمﷺ فى ثقة

واطمئنان قول ربه عز وجل : « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ*وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ*قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ*الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ*أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ*إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ*فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (يس ٧٧-٨٣) ..

وبدلًا من أن يتأمل هؤلاء الكفار ويكفوا عن عنادهم ويعملوا عقولهم، يلاحقون النبى ﷺ بالنكال والإيذاء.. ويبعثون بالنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود يثرب ليدلوهم على ما يعجزونه به، فيشير عليهم الأحبار بأن يسألوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان أمرهم ؟ .. وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه ؟ .. وعن الروح ما هى؟

ولكن النبى ﷺ يجيبهم بما تنزلت به عليه الآيات الست والعشرون الأولى من سورة الكهف فى شأن الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول، وبما نزل بالآيات ٨٣-٨٦ من سورة الكهف بنبأ ذى القرنين الطواف الذى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ثم يجيبهم عن الروح بقول ربه : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا» (الإسراء ٨٥).

فلما خاب سعيهم، هيأ لهم شيطانهم أن يسعوا لإغراء محمد ﷺ، بكل المغريات، مقابل الكف عن شتم آلهتهم التى يعبدونها من دون الله، وعدم ذكرها بسوء، فانتدبوا لمحادثته الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأمية بن

خلف، والأسود بن عبد المطلب بن عبد العزى .. فطفقوا يذكرونه بما سبق أن عرضوه عليه من المال حتى يكون أغنى رجل بمكة، وبتزويجه من شاء من النساء، وأن يكفوا عنه .. فإذا لم يقبل، فليتفقا على تقاسم عبادة الآلهة، هكذا خامرهم الظن، فيعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة، وهكذا دواليك .. فلا يزيد ﷺ على أن يقول له وهو ينصرف ماضيًا فى سبيله : « معاذ الله أن أشرك بالله غيره » .. وما يكاد ﷺ يفارق جمعهم حتى يوحى إليه جبريل عليه السلام من كلمات ربه : «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ*وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (الكافرون ١ - ٦).

من تراب الطريق! (٦٢٣)

العند يورث الكفر*!!!
(١٨)

تتلاحق مشاهد العناد والإنكار، والسخرية والاستهزاء، حتى لا تراعى قريش ومن والاها حرمة البيت العتيق، فيروى الرواه أن قريشًا كانت ضاربة فى فسادها، ماضية على عادتها الموروثة عن الآباء والأجداد .. يتهاترون تهاترات عجيبة فى القداسة التى فهموها بكفرهم للأصنام المرصوصة فى البيت العتيق، فلا يطوفون بالبيت إلاَّ عراة .. فيما عدا الحُمّس (قريش ومـ والت) .. يتأولون ذلك بأنهم لايطوفون فى ثياب عصوا الله فيها .. لا يجدون فى هذا العُرْى ما يخجل ويحسبون هذا الفحش عبادة .. وفى ذلك تنزلت الآيات ٢٦ – ٣٣ من سورة الأعراف تنهى عن هذه الفواحش!

وتأبى قريش إلاَّ أن تمضى فى عنادها وسوء مكابرتها .. وتأبى إلاَّ أن تعارض عبادة محمد وصحبه وطوافهم بالبيت العتيق، بطواف عابث ماجن، فتدفع الصبية والسفهاء إلى معارضة طواف المسلمين بطواف عابث هازئ يصفرون فيه ويصفقون، ويضعون خدودهم على الأرض مستهزئين بالمسلمين.. لا يقصدون من هذا الطواف الماجن عبادةً ولا ضراعةً ولا ابتهالًا، وإنما هو العناد والصد السفيه عن سبيل الله!

(*) المال ٢٠١٢/٧/٢٩

وفى أحد الأيام، يعترضهﷺ وهو ماض إلى داره، بعض رءوس قريش وسفهائها، فيمعنون فى عنادهم ويسألونه ساخرين مستهزئين : « يا محمد، واللات والعزى لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند ربك ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله كما تقول! »..

بيد أن النبىﷺ لا يبالى بهم، ولا يلتفت إلى ترهاتهم، ويمضى إلى سبيله وهو يقول :« إن ربى غنى عن العالمين » .. وبعد يوم أو بعض يوم، ينزل عليه الروح الأمين، فيوحى إليه من أمر ربه : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ*وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ*وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ*وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ*قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » (الأنعام ٧-١١).

هذا وبرغم مكائد قريش، وملاحقتها لمحمدﷺ بين الحجيج، وتعقب أبى لهب وأبى جهل له بما ألمحنا بطرف منه، لاقت دعوتهﷺ قبولًا بين بعض القبائل العربية التى تفد إلى مكة فى موسم الحج، برغم سفاهات وسخريات قريش .. ويكاد لا يمضى يوم، إلاَّ ويرى المكيون محمدًا ﷺ ماضيًا بين الدور، مناديًا فى أهلها : « يا أيها الناس، هلموا إلى الله .. إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا».. بينما يلاحقه أبو لهب وأبو جهل معاندين يناديان فى الناس من ورائه : « إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، فلا تسمعوا إليه!!».

وبينما عليه الصلاة والسلام يرنو إلى يثرب، تهب أنسام منها فى موسم الحجيج، فيتناهى إليه أن وفدًا من الأوس قد نزل مكة، فيطير عليه السلام

إليهم حاملًا دعوة ربه، فيقبل البعض، ويتحفظ البعض، وينصرف الأوسيون إلى يثرب على موعد للقاء فى العام القابل، بينما قريش لا تنى ولا تهدأ، وتحاول استدراج المسلمين إلى التشاتم والسباب .. ولا يدعون وسيلة للاستفزاز إلاَّ سلكوها، واشتط بعضهم فطلب إلى محمد ﷺ أن يجعل لهم من الصفا ذهبًا، ويقسمون أنه إذا فعل ذلك صدقوه واتبعوه، فتنزل الآيات من سورة الأنعام تدعوه ﷺ أن يعرض عن المشركين ويتبع ما يوحى إليه، وتدعو المسلمين إلى عدم مجاراة الكفار فى السباب، وتصرفهم عن استفزازات المشركين .. تقول الآيات للنبى ﷺ : « اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ*وَلَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ*وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ*وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ*وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ*وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ »(الأنعام ١٠٦-١١١).

من تراب الطريق! (٦٢٤)

العند يورث الكفر*!!!

(١٩)

لم يتورع الكفار عن أى نقيصة، واستباحوا فى عنادهم أن يجدفوا فى حق الذات الإلهية، فيروى الرواة أن أبا بكر وهو خارج من الكعبة، لاقاه بعض رءوس قريش، واعترضوه مستخفين، يقولون له: «أما يعلم صاحبك أن الملائكة بنات الله ؟!»، ولكنِ أبا بكر يرد استهزاءهم بسؤال صافع، فيقول لهم معرضًا بجهالتهم : «فمن أمهاتهن؟!»، فيسقط فى أيدى الطواغيت، ويعتريهم الوجوم، فلا يجدون ما يقولونه!

فى ذلك نزلت الآيات من سورة الصافات تقول معرضةً بهذا السفه والتطاول ـ عنادًا وجهلًا ـ على الذات الإلهية، فيقول عز من قائل : «أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ*أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ*وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ*أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ*مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ*أَفَلا تَذَكَّرُونَ*أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ*فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ*وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ*سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ»(الصافات ١٥٠ – ١٥٩).

(*) المال ٢٠١٢/٧/٣١

ومن فرط العناد الذى يورث المزيد من الكفر، جعل القرشيون يبدلون فى أحجارهم التى يعبدون كأنهم يبدلون ملابسهم .. يتبع كل منهم هواه .. لا يهوى الواحد منهم شيئًا إلاَّ ركبه، لأنهم بعنادهم وكفرهم لا يبصرون .. ترى من ظلَّ يعبد العزى ـ وهى حجر أبيض ـ لا يكاد يقع على حجر آخر يستحسنه إلاَّ ويغرق فى عبادة الحجر الجديد الذى صادف هواه .. لا يرى الحارث بن قيس السهمى، أحد كبار المستهزئين المعاندين ـ لا يرى ما فى ذلك من بعد مبعد مغرق فى الجهالة، بينما ينظر المسلمون فى عجب إلى هذه العقول الضامرة، وعدم التفاتها إلى ما هى فيه ـ بعنادها ـ من تفاهة وضلالة .. ينتقى ويبدل فى الأحجار التى يعبدها ما يشاء وفق هواه !! ويتنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فيوحى إليه من كلمات ربه : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ » (الجاثية ٢٣).

وإذ استدار العام على الحج السابق، وأقبل موسم الحج الجديد .. تتناهى الأنباء إلى النبى ﷺ بقدوم بعض من أنصار يثرب .. يوافيهم عليه الصلاة والسلام عند العقبة.. بينهم الستة الذين لقوه فى العام السابق : أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله، ورافع بن مالك .. أتوا يحملون بشارة تفشى الإسلام فى يثرب.. قد أقبل معهم لعامهم هذا سبعة آخرون .. من الخزرج معاذ بن الحارث بن عفراء نسبة إلى أمه عفراء الشريفة الخزرجية الطاهرة، وذكوان بن عبد قيس الزُرقى، وعبادة بن الصامت، وأبوعبد الرحمن يزيد بن

ثعلبة، والعباس بن عُبادة بن نَضْلة ـ ومن الأوس أبو الهيثم مالك بن التَّيْهان وعويم بن ساعدة..

بيد أن قريشًا لا تنى ولا تهدأ، ولا تفارق غطرستها وعنادها وإنكارها وصلفها وغرورها وصدها عن سبيل الله .. تحاصر محمدًا وصحبه ولا تدع سبيلًا للنكاية والإيذاء إلاّ طرقته .. وتمعن فى محاولتها عزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم، والحيلولة بينه وبين نشر دعوته .. بالأمس كفتها ثقيف مؤنة وقف التفسحة للدعوة بالطائف، ولكن صار عليها الآن أن تحاذر من انطلاقها بخارج مكة وما حولها، فماذا عساها تصنع وقبائل العرب تختلف إلى مكة لتؤم أسواقها ولتزور البيت العتيق .. أتستطيع قريش أن تحول بين محمد وبين الإلمام بالزائرين وبالحجيج ؟! إن محمدًا يثبت يومًا بعد يوم أن لا شىء يثنيه عن تبليغ رسالته .. وها هى الأيام تثبت لهم يومًا بعد يوم أنه لا يخيفه إيذاء ولا إرهاب ولا إعنات، ولا يصده حائل .. يملؤه يقين يدهشهم بأن الكتاب الذى نزل به سيبلغ فى النهاية أجله .

ومع ازدياد هلع قريش وسعارها، جعلت تلاحق النبى عليه السلام فى جولاته بتجمعات الحجيج فى موسم الحج .. وعلى سفوح منى، أرسلت قريش من ورائه أبا لهب مدفوعًا بغيظه وحنقه .. فيبث بدوره بعض العيون لترى ماذا يفعل، وجعل أبولهب يتتبع النبى وهو يدعو وفود العرب إلى الإسلام، ويحدثهم بأن الله تعالى يأمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا .. وأن يخلعوا ما يعبدونه من دونه من هذه الأصنام التى جعلوها لله أندادًا !! ويقول لهم : « يا قوم إن هذا الرجل إنما يدعوكم أن تسلخوا اللاّت والعزى من

أعناقكم وحلفائكم من الجن بنى مالك بن أَقَيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة .. يا أيها الناس، إنه كاذب فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه » !!

وفى مشهد آخر، يتقدم أبو جهل من خلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيتناول حفنة من التراب، ويسفى بها على هامته الشريفة ويقول للجمع : « يا أيها الناس، لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللاّت والعزى .. يريد أن تدَعوا عبادة آلهتكم وما ورثتموه عن آبائكم وأجدادكم»!!

لا يترك أبو لهب، ومن ورائه أبو جهل ورهطهما، موضعًا يذهب إليه النبى عليه السلام إلاّ لاحقوه ليسفهوا دعوته، ودون أن يجدوا حرجًا ولا غرابة فى القسم باللاّت والعزى .. فهم قد قطعوا كل صلة لهم بالبيت الحرام بالمعنى الذى أراده الله تعالى أن يكون مثابة للناس وأمنا، وأن يُطَهَّر للركع السجود الذين يركعون إلى الله لا إلى الأصنام والأوثان .. فملئوا الكعبة عن آخرها بهذه الأصنام التى جعلوا يتعبدون لها ويقدمون لها القرابين !!

لم يكن هؤلاء المشركون الذين شنفوا للرسول عليه السلام وآذوه وعذبوا المسلمين ـ لم يكونوا يعرفون مقامًا حقيقيًا ولا حجًّا حقيقيًّا للبيت الحرام، بل كان الحج الشائع لديهم للبيت العتيق قبل الإسلام، لا ينتمى للدين بأى صلة .. بل تعمدت قريش بتدبير رءوسها أبى جهل وأبى لهب والنضر بن الحارث وغيرهم، أن تدفع الصبية والسفهاء إلى معارضة طواف المسلمين بالكعبة بطواف عابث هازئ يصفرون فيه ويصفقون ويضعون خدودهم على الأرض للاستهزاء بالمسلمين .. لا يقصدون بهذا الطواف العابث عبادًة ولا ابتهالًا، وإنما هى النكاية والعناد الضرير والصَد السفيه عن سبيل الله !

العند يورث الكفر*!!!

(٢٠)

ما كاد صبح أحد الأيام يتنفس، حتى كانت قريش قد علمت بنبأ هذه البيعة التى تمت فى العقبة على الطريق من مكة إلى منى، فانزعجت انزعاجا شديدًا لم تطق عليه صبرًا، وانطلق رءوسها ينشدون مضارب القادمين للحج من يثرب على سفوح منى .. وبدءوا بالخزرج، فبادروهم بعتاب غاضب .. « يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حىّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم » !

بادر زعماء قريش بالذهاب إلى دار الندوة بجوار الكعبة، ليتدبروا ماذا يفعلون فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم .. أيقتلونه ؟ ..

ولكن أتسكت بنو هاشم عن المطالبة بثأره ؟! .. ماذا هم فاعلون ؟!!! ..

ها هو محمد يمضى فى دعوته ولا يبالى ..

لا يدع بيتًا من بيوت مكة إلا دعا أهله إلى الإسلام ..

ولا أحدًا من الحجيج الذين يأتون لزيارة البيت العتيق إلا ألم به وتحدث إليه وسحره بقرآنه ودعاه للإسلام لم يفلح تعقب أبى لهب وأبى جهل

(*) المال ٢٠١٢/٨/١

وتكذيبهما له وحضهما الناس على عدم الاستماع إليه .. لم يُجْدِهم شيء من ذلك .. لا يفهمون لذلك سببًا إلاّ أن لحديثه طلاوة كأنغام الشعراء .. إنهم يخافون بنى هاشم إذا قتلوه .. إذن فليقيّدوه ويحبسوه .. يقول قائل منهم : «احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله الشعراء : زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم !! ..» فيتنزل الروح الأمين على النبى المصطفى يتلو عليه من كلمات ربه : « فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » (الطور : ٢٩-٣١).

جعلت قريش تتسقط الأخبار لتعرف الحقيقة فى أمر من تناهت الأنباء بأنهم بايعوا محمدًا من الأوس والخزرج .. وتأتى الأخبار لقريش بأنه قد غرر بهم، وأن أهل يثرب قد بايعوا محمدًا صلى الله عليه وسلم وأعطوه العهد والأمان .. فتستشيط قريش غضبًا، وتتنادى للخروج فى طلب القوم قبل أن يفلتوا إلى يثرب..

وعند « أذاخر » .. وهو موقع قريب من مكة، لحقت طلائع قريش بسعد بن عبادة من زعماء الخزرج، بينما تمكن المنذر بن عمرو أخو بنى ساعدة بن كعب بن خزرج من الإفلات .. فأخذت قريش تصب جام غضبها على سعد بن عبادة .. تكأكأ عليه الرجال فربطوا يديه إلى عنقه برباط رحله .. واحتملوه مربوطًا مقيدًا إلى حيث أدخلوه مكة على هذه الحالة: يضربونه ويجذبونه بجمته (مجتمع شعر الناصية)، وكان ذا شعر كثير .. وبينما سعد بن عبادة فى كرب شديد .. يعترض الركب رجل من قريش : وضيء أبيض شعشاع (الطويل الحسن) .. هو سهيل بن عمرو . يتوسم فيه سعد خيرًا،

ولكنه يفاجأ به لدى دنوه منه يلكمه لكمة شديدة حتى أيقن سعد من الهلاك، بينما القرشيون آخذون فى سحبه وسحله .. يقترب منه رجل من أهل مكة هو أبو البخترى بن هشام.. فيسأله : ويحك !! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟!

فيقول له سعد بن عبادة مغالبًا ما فيه من ضنك : « بى والله، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى تجارة ـ وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى .. وكذا للحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس ».. فيقول له أبو البخترى : « ويحك!! فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما من جوار » ..

وطار أبو البخترى وكان شهمًا، ليبحث عن جبير ابن مطعم أو الحارث بن حرب ليجيرا سعد بن عبادة، فألفاهما عند الكعبة، وما كادا يسمعان منه ما لحق ويلحق بسعد بن عبادة، حتى طارا إلى الأسير .. ولم يلحقا به إلاَّ وهو مشرف على الهلاك، فأجاراه واستخلصاه من أيدى القرشيين !!!

بدأت ببيعتى العقبة الأولى ثم الثانية، مرحلة افترقت فيها المشاهد افتراقًا كبيرًا بين مكة مسقط رأس النبى عليه السلام، والتى يقاومه طواغيتها ويعنتونه ويؤذونه، وبين يثرب أو المدينة المنورة التى جعلت تمثل أملًا للدعوة الإسلامية المحاصرة بمكة ..

فى يثرب وصل أصحاب البيعة من الأوس والخزرج، فرحين مستبشرين، يملؤهم السرور والغبطة بما بايعوا به وعليه النبى المصطفى عليه السلام .. تغمرهم أنوار الإيمان وتملؤهم مشاعر جارفة تغذيها عزائم قوية

مخلصة لتهيئة مدينتهم لاستقبال طلائع المهاجرين إليها من مكة .. فلا يترك أصحاب البيعة فرصة إلاَّ اغتنموها لزيادة رقعة الإسلام والمؤمنين به بالمدينة.

وعلى النقيض كان أهل مكة، وعلى رأسهم طواغيت الكفر من قريش .. يسألون ويتجادلون .. يعاندون ويكذبون وينكرون .. ولا يدعون فرصة للجاجة إلاَّ اهتبلوها ..يسخرون من أمر « الساعة » التى ينذرهم بها محمد، ويتنزل الروح الأمين على خاتم المرسلين فيلقنه من آيات ربه : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » (النازعات ٤٢ ـ ٤٦)، ولكن قريش لا تفيق من ضلالها لا ترعوى، وتلاحق الرسول والمسلمين بالإيذاء حتى لم يعد أمامهم مفر من الهجرة إلى يثرب .. وتتوالى الأيام والمسلمون يخرجون سرًّا إلى يثرب، بينما الكفار يضربون أخماسًا فى أسداس، ماذا هم فاعلون لمنع الرسول والمؤمنين من الخروج من حصارهم لهم فى مكة ؟!

العند يورث الكفر*!!!

(٢١)

ويأتى الميقات فيخرج الرسول ﷺ ومعه صاحبه أبو بكر مهاجرين إلى يثرب ـ فى صباح كل يوم منذ خرج الرسول عليه السلام وصاحبه من مكة، كان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر، يقوم مع إشراقة شمس كل صباح، على رعى غنمه فى حضن جبل ثور والفضاء الذى حوله ليطمس آثار أقدام أسماء بنت أبى بكر التى كانت تأتى إليهما بالطعام والشراب، ويضلل قريش عن مكان اختباء الصاحبين، حتى إذا ما جن الليل، أخذ هذا المولى الأمين بعض غنماته إلى الغار فيحلب للرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه ما يشاءان، ويكر عائدًا خادعًا قريشا بالأغنام التى يقودها أمامه ويرعاها عن الاهتداء إلى مكمن الصاحبين !

مضت الأيام تباعًا، والرسول عليه السلام وصاحبه بغار ثور، وقريش تزداد ثورةً وغيظًا وتتلمس محمدًا عليه السلام وصاحبه فى كل منعطف يقود إلى يثرب، دون أن تعثر لهما على أثر .. وبعد ثلاثة أيام بعد أن أعياها البحث فى اتجاه يثرب، يممت طغمة من فرسانها جنوبًا بحثًا عنهما فى غير الاتجاه إلى يثرب، لعلهما يختفيان فى بعض الجبال المحيطة بمكة ..

(*) المال ٢٠١٢/٨/٢

واقتربت شرذمة منهم من غار ثور وبداخله الصاحبان .. فتناهت إلى سمعهما أصوات وقع حوافر الخيل على باب الغار، وقد أوشكوا على الدخول إليه، لولا أن صاح واحد منهم : « ألا ترون ما عليه من نسيج العنكبوت » ؟! .. وأضاف آخر : « يبدو الغار وكأنه مهجور لا يدخله ولا يخرج منه أحد »، فيقفى ثالث : « وهاتان الحمامتان الوحشيتان » ! فيقول الأول ضاحكًا : « راقدتان بعشهما فى فم الغار فى سلام »، فيعود الثانى ليقول لهم : « ألم أقل لكم إنه مهجور » ؟! ..أما بداخل الغار، فإن القلق على رسول الله كان قد بلغ بأبى بكر الصديق كل مبلغ، مخافة أن يبلغ طواغيت قريش من الرسول ما يريدون .. فتنثال عبراته رضى الله عنه، ولكن النبى ما إن يفرغ عليه السلام من صلاته، حتى يأخذ بيد أبى بكر حانيًا مشجعًا، فيهمس إليه أبو بكر : « يا رسول الله هؤلاء قومك يطلبونك ! .. أما والله ما على نفسى أبكى ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره » ! .. فيقول له النبى مواسيًا مشجعًا : « لا تحزن إن الله معنا » .. فينظر أبو بكر إلى مدخل الغار ويقول للرسول هامسا : « لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصرنا تحت قدميه "! فيقول له النبى : « ماظنك باثنين الله ثالثهما !! .. فيشير أبو بكر إلى أحد القرشيين قائلاً : « يا رسول الله إنه يرانا » ! .. ولكن النبى عليه السلام يطمئنه قائلا فى ثقة : « كلا، إن الملائكة تستر عنّا بأجنحتها .. يا أبا بكر لو كان يراك ما فعل هذا ! .. ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما » ؟!!

سرت السكينة وشعت نسماتها من النبى المصطفى إلى صاحبه أبى بكر .. بينما يأتى من الخارج صوت أمية بن خلف مناديًا الفرسان من أسفل الجبل.. « ما أرَبكم فى الغار »؟! فيقول له أحدهم : « لعلهما يختبئان بداخله»! ولكن

أمية يجيبه : « إن عليه لعنكبوتًا كان قبل ميلاد محمد » ! . هنالك لوى طغمة الفرسان أعنة خيولهم، وكرّوا عائدين ليلحقوا بقريش فى بطن الوادى.. وليمضى الجميع هائمين هامين بحثًا عن طلبتهما فى الشعاب والجبال والبيداء ..

و بعد أن مضى الوقت وهدأت حركة قريش يأسًا، واطمأن النبى عليه السلام وصاحبه مما نقله إليهما عبد الله بن أبى بكر من قنوط قريش وهدوء حركتها، استقبلا تحت جنح الليل الدليل عبد الله بن أُريقط الذى أتاهما بالناقتين، ثم تهيأ النبى ـ عليه السلام ـ وصاحبه للرحيل ومعهما عامر بن فهيرة مهاجرين إلى حيث شاء الله .. ويقف النبى صلى الله عليه وسلم، فيتضرع داعيا إلى الله : « الحمد لله الذى خلقنى ولم أكُ شيئًا، اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام، اللهم اصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى وبارك لى فيما رزقتنى، ولك فذللنى، وعلى صالح خلقى فقومنى، وإلى ربى فحببنى، وإلى الناس فلا تكلنى، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض فكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن يحل بى غضبك أو ينزل علىّ سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك وفجاءة نقمتك وتحول عاقبتك وجميع سخطك، لك العتبى خير ما استطعت، ولا حول ولا قوة إلاّ بك » .

انسلت الصاحبان تحت جنح الليل من الغار، ميممين شطر يثرب، ولكن النبى عليه السلام لا يستطيع أن يقاوم الالتفات خلفه إلى مكة، فيقف ناظرًا إليها متمليًا وقد أخذه الشجن .. ليقول وعيناه تنظران إلى أبنية مكة التى

أخذت تتضاءل أحجامها على البعد .. « والله إنك لأحب أرض الله إلىّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت » !!

فى الصحراء القاحلة، بين هدوء الليل البهيم، ووهج الشمس الحارقة فى النهار، مضت الرحلة المباركة التى فرضت تاريخًا جديدًا وتقويما جديدً للتاريخ .. النبى عليه السلام وبصحبته أبوبكر الصديق يغذان السير فى طريقهما إلى يثرب .. تمر بالنبى أطياف ما ألمّ به وبالمسلمين فى مكة .. كيف لهؤلاء الكفار الذين تحجرت قلوبهم أن يصدوا هذا الصد المفحش عن سبيل الله، وكيف يجرهم العناد والغباء إلى هذا المركب الصعب الذى ركبوه.. آذوا بنى قومهم وآذوه ونكلوا بالمستضعفين، وأمعنوا فى إيذائهم وتعذيبهم، وحاصروا المسلمين لمنعهم من عبادة الله، وضيقوا عليهم مكة بما رحبت، ولاحقوهم فى كل ربع من ربوعها وزقاق من أزقتها .. وجعلوا يمارسون تعذيب المسلمين والتنكيل بهم والبغى عليهم حتى أخرجوهم من ديارهم وكلفوهم من أمرهم رهقًا .. ما لهذا الصلف والجبروت ؟!! .. وإن النبى صلى الله عليه وسلم لفى أسماه وخواطره، يتنزل عليه جبريل عليه السلام فيوحى إليه ويرطب قلبه من كلمات ربه .. « وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ » (محمد ـ١٣) .. ثم يرتفع الوحى، والنبى عليه السلام وصاحبه ماضيان فى طريقهما إلى حيث دار الهجرة التى احتضنت المسلمين من هذا الطغيان الذى أخرجهم إخراجًا من مكة حيث بيت الله الحرام !

من تراب الطريق! (٦٢٧)

العند يورث الكفر*؟!! (٢٢)

يعلم القارئ أن قريشًا لم تتوقف بهذه الهجرة النبوية عن عنادها وصدها وتآمرها على الدعوة والداعى، وأن المدينة المنورة شهدت مشاهد أخرى ما بين تآمر قريش وما تشنه، وألاعيب اليهود والمنافقين بالمدينة، ولست أريد أن أحول هذه السطور إلى استعراض فصول السيرة النبوية، وعنها أحيل من يشاء إلى مجلدات كتابنا : « السيرة النبوية فى رحاب التنزيل » .. ولكننى أريد أن أعود إلى الفكرة التى دفعت إلى تسطير هذه الفصول من سير الأنبياء والرسل، وما لاقته النبوات والرسالات من صد ومقاومة ضريرين كان عمادهما العناد الذى أغلق العقول والأفهام .. قلنا فى كتابنا الأديان والزمن والناس، إن اعتياد الكفر، كان هو «الشرنقة» التى جمعت جميع المعاندين الكافرين فى صدهم للأنبياء والرسل فى كل عصر .. وكأنهم كانوا جميعًا ينطقون بلسان واحد، وعلى نسق واحد، ووتيرة واحدة، وعلى إيقاع واحد يجمع خيوطه على اختلاف الأقوام والعصور والأزمان، إلف هؤلاء وأولاء واعتيادهم وجمودهم وتقديسهم الضرير وتمسكهم بما ألفوا ووجدوا عليه

(*) المال ٢٠١٢/٨/٦

آباءهم وأجدادهم .. لا يجدون فى هذا الجمود إلاّ الحق ولا حق سواه، وغيره باطل لا صحة ولا سداد فيه!!!

الذين سمعوا وصدوا نوحًا عليه السلام، لم يتذرعوا إلاّ بالعادة الموروثة الناشبة فى حناياهم عن الآباء والأجداد، فتعللوا قائلين فيما يروى القرآن المجيد : « مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ • إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ » (المؤمنون ٢٤، ٢٥) .. فى ذات هذه الوهدة يتردى قوم إبراهيم الخليل، مع أنه عليه السلام شرح وبين وأوضح وساق حجته لأبيه : « إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا » (مريم ٤٢) .. لم يثن هذا الشرح والبيان ـ قوم إبراهيم عن لجاجة الإخلاد إلى شرنقة العادات الموروثة عن الآباء والأجداد .. لم يجدوا ما يردون به على تعجب إبراهيم لهم عن عبادتهم أصنامًا لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، إلاّ الهروب إلى عالم الأجداد الغابرين، فقالوا فيما يرويه القرآن : «بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » (الشعراء ٧٤) .. تروى هذا المشهد سورة الأنبياء فتقول عن إبراهيم الخليل وقومه : « إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ • قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ • قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ » (الأنبياء ٥٢ـ٥٤) .. لا يحجم بنو إسرائيل عن إبداء عجبهم لموسى مما جاء يدعوهم إليه من نور وتوحيد، فيقلبون العجب مما يفعلون إلى عجب من دعوة موسى الكليم لا لشىء إلاّ لأنها تريد أن تلفتهم وتثنيهم عما وجدوا عليه آباءهم السابقين، يقولون لموسى منكرين لائمين : « أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا » (يونس ٧٨) .. «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ » (القصص ٣٦) .. ذات هذا العجب العجيب أبدته ثمود لنبيها صالح : « أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » ؟! (هود ٦٢) ..

بينما تقول مدين لشعيب عليه السلام : « أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » ؟! (هود ٨٧) .. وعلى مثل هذا التعجب تقول عاد للنبى هود : « أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » ؟! (الأعراف ٧٠) .. حتى الفواحش، لم يجد الكفار بأسًا من أن يبرروها بصنيع الآباء والأجداد الغابرين، يصفهم القرآن المجيد إلى الرسول المصطفى فيقول عز شأنه فى سورة الأعراف : « وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ » (الأعراف ٢٨) .. تتحكم فى هذه العقول شرنقات العادة والاعتياد، فلا يلتفتون ولا يبصرون ما فيها من قبح وتهافت وضلالة، فيقولون فيما يرويه الذكر الحكيم لنبى الهدى عليه السلام : « بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ٠ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ » (الزخرف ٢٢ ـ ٢٣) .. من هؤلاء وأؤلاء ـ ومن كفار قريش ـ يسخر القرآن المجيد من ضلالهم وقصور عقولهم وعماهم الضرير، فتقول الآيات البينات : « إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ ٠ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ » (الصافات ٦٩ ـ ٧١) .. تدل هذه الآيات وغيرها، على أن عرق تترس الكفار والمشركين بشرنقة العادة وموروثات الآباء والأجداد الغابرين ظل ممدودًا حتى تعلق به طواغيت قريش وكفار شبه الجزيرة العربية، وقاوموا به الدعوة المحمدية .. لم تنفعهم القوارع التى نزلت بالسابقين، ولا المنطق المبين الذى واجه به الأنبياء لجاجة الكفر، ولا سخافة معتقدهم الذى دعا إبراهيم الخليل أن يقول لهم فيما يرويه القرآن:«أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ » ؟! (الصافات ٩٥) .. على قدر تكرار هذه الظاهرة، على قدر ما تناولها القرآن وتنزل بها

على رسول الإسلام .. قص الذكر الحكيم ما كان من ضيق منطق هؤلاء الأقوام مع نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى وغيره ـ فى سور البقرة والمائدة والأعراف والأنبياء ونوح وإبراهيم والفرقان والشعراء والمؤمنون والقصص والصافات وص ولقمان والقمر وغيرها، يحاجيهم القرآن المجيد فى سورة البقرة بقوله عنهم : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ » (البقرة ١٧٠) .. وفى سورة المائدة : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ » (المائدة ١٠٤). أرادهم القرآن، وبين لهم رسوله، أن التعلق بالآباء أو التذرع بتوقيرهم، لا يعنى مسايرة الضلال أو اعتناق الباطل أو العمى عن النور والحق المبين !!

ومع التسليم بالأثر السلبى الخطير لسلطان العادة أو شرنقة الاعتياد، فإنه محال على العقل أن يسيغ أن يُعزى هذا الجمود والانحصار الغبى فى « الشرنقة » إلى محض احترام وتوقير الغابرين، فقد خالفوا سنهم حين أرادوا، أو أن يكون محض ارتياح للواقع القائم أو عجز عن فهم الجديد .. فقد كان بعض هؤلاء الأقوام ـ كقريش على سبيل المثال ـ على قدر من الإلمام بالأديان السابقة والحضارات المجاورة .. الأمر الذى يومئ أن « الشرنقة » التى انحصر فيها السابقون واللاحقون قد دخلتها دنيا المصالح، فالشرائع باطلها قبل سديدها تنمو حولها مصالح تتخذ لحمايتها درقة أو درقات، وتتحصن بالقديم المألوف المجرب لأن المصالح التى نمت حوله آمنة فى حضانته، مهددة فى غيرها ! .. لا يكتفى الآدمى فقط بالسقوط فى وهدة سلطان الاعتياد، وإنما يتشبث بالمصالح التى نمت حوله .. يعض عليها بالنواجذ !!

من تراب الطريق! (٦٢٨)

العند يورث الكفر*!!!

(٢٣)

لا بأس من أن نختتم هذه الفصول، بما ذكرناه فى كتابنا :

« الأديان والأمن والناس »- كتاب الهلال - ٦٦٩ - فى سبتمبر ٢٠٠٦ - من أن الأديان لا تنتهى غايتها بمحاربة شرنقة اعتياد الكفر، وإنما غايتها المثلى احتواء وهدم كل « عادة » ذميمة تتشرنق فيها المذمات والمصالح والمآرب العارضة وتأخذ البشرية بعيدا عن طريق الحق والجمال ..

هذه الغاية المثلى لا تنهض بها قارعة حسية تبهر العقول والألباب دون أن تحمل بذاتها مدد النور والهداية فيما يصادف الإنسان كل يوم من سلبيات تتمحور وتصد كل دعوة أو محاولة للتغيير والإصلاح .

إن لكل زمن عادات وشرنقات تتحوصل فيها هذه العادات والمصالح، والتعامل مع هذه « الشرانق » المتغيرة يستلزم قدرة آلية ذاتية تحمل مقومات التعامل مع كل منها حسبما تقتضيه عناصرها .. ومن هنا كانت القيمة العظيمة لهداية العقل والضمير التى أتى بها وأنجزها الإسلام، لأنها تعطى

(*) المال ٢٠١٢/٨/٧

للآدمى أكسير التعامل الدائم المتجدد مع آفة كل عادة ومآرب المصالح التى تتشكل وتتمحور وتتشرنق فى دنيا الناس !!

لم تكن السماء بعيدة عن هذا كله، ولا كانت غير ملتفتة إليه، وإنما هى مراحل كان لا بد من تتابعها تتابعًا تدريجيًا لتأهيل البشرية لاستقبال الهداية الفارقة التى تأخذ بيدها أبدًا إلى النور الدائم الذى لا يخبو ولا ينقطع ـ هذا النور الذى يحمل شعلته الذاتية، وقوامها هداية العقل والضمير، وقوته الدافقة الدافعة التى تكفل للإنسانية ديمومة الإمساك بالخيط الذى يشدها دوما إلى الحق والنور .. كيف حقق الإسلام ـ الدين الفارق الخاتم ـ هذا الإنجاز ؟

المسئولية التى نيطت بالإسلام، لم تكن كشأن الديانات السابقة، لأمر بالغ الأهمية عريض الخطر .. كانت الأديان من قبل ديانات لأقوام، محدودة الدائرة التى فيها يجرى الخطاب فى زمان بعينه، إلى قوم بعينهم، فى بقعة يعيشون فيها، محدودة بهم ومحدودين فيها بلا وسائل اتصال أو انتشار مما أتيح للبشرية من بعد، فكان مفهومًا ومقبولًا مع هذه المحدودية أن تحتل المعجزة المادية أو الحسية مكان الصدارة لأنها بالغة الغاية فى دائرتها ما دام لا يطلب إليها أن تتخطاها إلى خارج الزمان والمكان اللذين فيهما يعيش المخاطبون، بينما جاء الإسلام ليخاطب الدنيا بأسرها، الرب فيه رب العالمين لا رب قوم بذاتهم، والخطاب فيه يتجاوز حدود المكان وحدود الزمان ليقدم للإنسانية الدين التام الكامل الخاتم الذى تغيت السماء أن يكون دينًا للعالمين إلى أن يرث سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها . هذا الدين لا يؤدى غايته المرجوّة إن لم يحمل بذرة وصلاحية وقدرة الامتداد فى المكان

والزمان، وغير متصور لهذه الغاية العريضة أن يكون خطابها محدودًا، ولا أن تكون أدواتها محدودة، لأن هذه وتلك تقعدان بالديانة عن بلوغ هذه الغاية المأمولة ـ لذلك كان لابد للإسلام أن يكون دينًا فارقًا يحمل شعلته الذاتية، وقوامها هداية العقل والضمير، ليكون له بهذه الهداية ـ القوة الدافقة الدافعة التى تكفل للإنسانية ديمومة الإمساك بالخيط الذى يشدها دومًا إلى الحق والنور والجمال .

ليس يعنى هذا أن الإسلام أو رسول الإسلام قد افتقدا « حجة الصدق»، أو أن سيرة النبوة المحمدية قد خلت من الآيات والمعجزات، وإنما الآية البينة على كمال الإسلام غايةً ومنهاجًا، أنه قدم للإنسانية مفتاحًا تواجه به المعضلات وآفات الجمود والاعتياد على مدار الزمن، فلا ينحصر فى إزالة شرانق اعتياد الكفر، وإنما يتجاوزها إلى هداية موصولة تحاصر كل ضلالة ناشبة أو محتملة النشوب، وهو لذلك قدم منهاجًا متكاملًا وعقيدة شاملة تصح بهما الحياة والأحياء فى عالم مشدود إلى نور دائم لا يخبو ولا ينقطع، شعلته الذاتية هداية العقل والضمير والوجدان .

لذلك كانت النبوة المحمدية، نبوة هداية ترمى إلى تفتيح العقل وتبصيره ودعوته واستثارته إلى التأمل والتفكير والفهم والتدبير .. ولذلك أيضًا كان القرآن المجيد هو آية الإسلام الكبرى، وحجته الموصولة المحددة، وزاده المعطاء الذى لا ينفد لإنارة سبيل البشرية إلى الحق والنور والجمال ..

القرآن المجيد كتاب « عقل »، يجعل من التفكير فريضة بدعوة صريحة فى الآيات وخواتمها التى تستدعى ملكة الفهم والنظر والتأمل والتفكير، على نحو : « أفلا تعقلون » .. « لعلكم تتفكرون » .. « قل انظروا ماذا فى

السموات والأرض » .. « لعلهم يفقهون » .. « أفلم ينظروا » .. «أو لم يتفكروا ».. « لآية لقوم يتفكرون » .. « أفلا ينظرون » .. « أفلا تبصرون» .. « ليدبروا آياته » . « أفلا يتدبرون » ..

هذه وغيرها من القوارع المنبهة المتكررة ـ لا تأتى فى القرآن المجيد عرضًا، وإنما فى إطار منهاج عميق يتبناه القرآن ويدعو إليه حتى فى مسائل الإيمان والعقيدة .. « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَـذا بَـاطِلًا سُبْحَـنَكَ فَقِنَـا عَـذَابَ النَّارِ»* (آل عمران ١٩٠، ١٩١) .. هذا التأمل المتعبد الفاهم الواعى ـ هو قوة دفع ذاتية بآلية دافقة لا تنقطع تستخلص المتأمل من وهدة شرانق الكفر أو الضلالة أو الجمود، وتكفل له ديمومة المدد والأثر الفاعل واستمرار الإمساك بأحبال الهداية والنور .. لا ينقطع هذا المدد بتجاوز كفر أو شرك ناشب فى النفوس، ولا باقتلاع عادة ذميمة، ولا بالقضاء على آفة مستحكمة ـ وإنما هو طاقة ديناميكية واعية، تعطى القدرة على مواجهة واحتواء أو تجاوز أو إزاحة كل « سالبة » أو « مذمّة » أو « عادة » أو « نقيصة » تفرخها مسالك ودروب ومآرب الناس فى الحاضر أو فى الزمن القابل ..

من تراب الطريق! (٦٢٩)

العند يورث الكفر *!!!

(٢٤)

لم تنقطع قط مآرب وأغراض الناس عن إفراز « المذمّات » و « النقائص » والتحوصل فى شرانق الاعتياد أو الجمود، أو بمنطق « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » .. ولذلك لم تنقطع حاجة دعوات الهداية أو الإصلاح أو التغيير أو التطوير أو الترقى ـ إلى مدد موصول يعطى « المفتاح » لتجاوز ما يطرأ أو عساه يطرأ، وهذا المفتاح لا يكون إلاّ بقدرة فاعلة ومهيأة ـ بالنظر والفهم ـ إلى سبر أغوار المستجدات، واست كشاف جذور الآفات والنقائص والسلبيات، واستشراف سبل محاصرة شرانق الاعتياد والجمود، وإزاحة أو إزالة أسبابها، وإفراز معطيات جديدة صالحة تدفع تيار الحياة والأحياء إلى الحق والجمال والكمال .. هذه الغاية المثلى، لا تتحقق بقارعة أو خارقة غابرة شدت وبهرت فى أوانها ثم انطمرت وانطمر وزال أثرها .. يلمس القرآن المجيد هذه الحقيقة لمسًا عميقًا حين يورد:« وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ » (الإسراء ٥٩) .. هذا التكذيب الضرير واجه كل الدعوات استمساكًا من المنكرين والمكذبين بضلال الآباء والأجداد الغابرين..« إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ

(*) المال ٢٠١٢/٨/٨

قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ »(الصافات ٦٩ ـ ٧٣) ..

مفتاح الإسلام إلى القدرة الموصولة على ديمومة مواجهة شرانق « العادات » و « المذمّات »، وطلب الكمال والسعى إليه، مجدول فى المنهاج العقلى الذى اعتمده القرآن المجيد وتبنته النبوة المحمدية الهادية التى لا تسعى إلى إسكات ولا إلى سيطرة ولا تجبر ولا إلى قمع للفكر والفهم، وإنما إلى التبصرة والتنوير والهداية .. الدعوة قوامها الحكمة والموعظة الحسنة والمحاورة القائمة على العقل والمنطق واستشفاف الصواب : « ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »..(النحل ١٢٥)

هذا المنهاج العقلى كان هو أداة الإسلام النافذة فى مواجهة وإزالة «الموانع» و« المذمّات » و « النقائص » و « شرانق » العادة والجمود ـ التى اعترضت سبيل دعوته .. واجه الإسلام العرف المغلوط، وعبادة الأسلاف، والاقتداء الأعمى بالكهان وأصحاب السلطة الدينية، والخوف المذل من أصحاب السلطة الدنيوية .. هذه المواجهة التى تصدى لها الإسلام، لا تتحقق غايتها بخارقة مفحمة، ولا بمعجزة مسكتة، وإنما اعتمدت فى الماضى، وكفيلة بالمضى على ذلك فى المستقبل، على الفلسفة القرآنية فى إعلاء العقل والتفكير، وعلى نبوة الهداية والتبصير .. فلا حاجة إلى كهانة ولا إلى هيكل، لأن الله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وقبلته إليه سبحانه ممدودة بغير عوائق ولا حدود .. « فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (البقرة ١١٥) .. حاجة المتدين إلى الفهم مكفولة بعطاء وتبصير وتنوير أهل العلم لا بنفوذ سلطان الكهانة .. « فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ »

(النحل ٤٣) .. ولم يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله جريًا وراء سنن الآباء والأجداد، أو خنوعًا لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى العقل والدين، أو رهبةً وجبنًا من بطش الطغاة والمتجبرين !

خطاب القرآن المجيد للمعاندين المتحوصلين فى « شرانق » الاعتياد والتحجر والتسمّر والجمود، خطاب لحمته العقل وسداه الفكر .. بالعقل والتفكير ـ لا بمحض خارقة مفحمة ـ تدرك النفس الإنسانية ضلالة التحجر والجمود على عمى الغابرين .. « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ » (المائدة ١٠٤) .. « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ » (البقرة ١٧٠) .. إزالة الانقياد الأعمى إلى سلطان الكهانة، لم يرد فى القرآن الحكيم عاريًا من سببه وسنده أو منزوعًا عن علّته وغايته .. يقول الخبير الحكيم : « اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » (التوبة ٣١ ـ ٣٢) .. تقفى الآيات القرآنية بعد ذلك مباشرة بلفت صريح إلى أن النبوّة المحمدية نبوّة « هداية »، فتقول : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » (التوبة ٣٣) .. هذه « الهداية » لا تجرى منزوعة أو منفصلة عن واجب المتلقين والمخاطبين فى إعمال العقل والفهم وإدراك الغاية .. تجمد المتلقين على عادات الآباء وانصرافهم عن الإمساك بخيوط الهداية ـ عمّى ضرير مغبته عليهم لا على سواهم،

فيوصى القرآن رسوله المصطفى بقوله له : « قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » (الأنعام ٩١) .

أدرك الإسلام أن مقاومة « شرانق » الاعتياد، لا تتأتى فقط ببيان ما فيها من عمى وعوار، ولا بدحضها بالحجة، والتفت بوعى رشيد إلى أن الناس لا يقبضون على ماضيهم بعناد وتعصب وإصرار إلاّ حين لا ينجح الحاضر في اكتساب ثقتهم، وحين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم، وحين تضيق زوايا ومساحات رؤيتهم فلا يدركون جوهر ومعالم وإيجابيات « البديل » الوافد أو المطروح .. أمسك الإسلام بالخيط الصحيح بالتفاته ولفته إلى أن الدين وسيلة للإصلاح، وأن هذا الإصلاح هو الغاية المثلى التى من أجلها قدم الإسلام منهاجًا شاملًا وشريعة متكاملة وصورة للحياة تشد الإنسان حيث كان من وهدة الجمود والتحوصل أو التحجر إلى واحة الحاضر حيّ ومستقبل أكثر حياةً وإشراقًا .

الإسلام دعوة إصلاحية تستنهض الناس من آفات الاعتياد، لأنه عقيدة شاملة أحاطت الحياة بكل ما يحتاجه التعامل مع معطياتها السالبة والموجبة، وليس يحتاج الباحث إلى كثير عناء ليدرك شمولية عقيدة الإسلام، فهى مرئية بوضوح وجلاء فى آيات القرآن المجيد التى يسمع تلاوتها وترتيلها من يفوته قراءتها، ثم هى ملحوظة ـ هذه الشمولية ـ فى أحوال المسلم فى معيشته وعبادته .. يكفى للمتأمل أن يرى المسلم متجهًا بعبادته مباشرة إلى ربه مستقلًا بها عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن، ليعلم من ذلك وغيره ـ أن الدين الإسلامى وحدة متكاملة فى متناول المسلم أينما يولى فثمّ وجه الله .